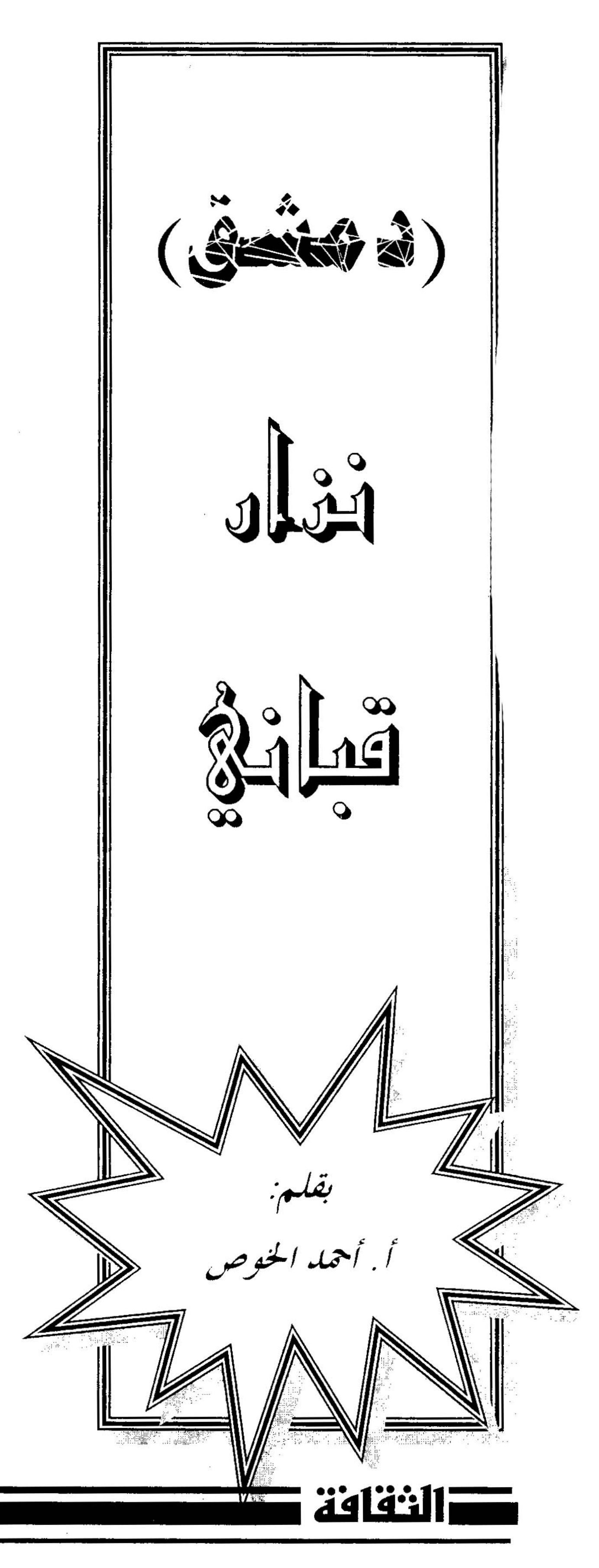
ودمشقُ.. أين تكونْ؟ قلتُ: تَرينَها
في شعرك المنساب نهر سواد
في وجهك العربيّ في الثغر الذي
مازالِ مختزنا شموس بلادي
في طيب جنات العريف ومائها
في الفلّ، في الريحانِ، في الكباد

هكذا أجاب نزار قباني الفتاة الإسبانية المولد، العربية الشعر والعينين بعد سبعة قرون من أفول الدولة العربية في الأندلس فقد ظهرت هذه الفتاة وظنّت نفسها أنها إسبانية الشكل والمضمون فأجابها نزار بالأبيات السابقة عندما سألته: أين تكون دمشق؟

ولم يكتف نزار بهذا القدر من الإجابة على سؤالها بل استمر قائلاً:

ما أغرب التاريخ كيف أعادني
لحفيدة سمراءَ من أحفادي
وجهٌ دمشقيٌّ.. رأيتُ خلالهُ
أجفانَ بلقيس.. وجيد سعادِ
ورأيتُ منزلنا القديم وحجرة
كانت بها أمي تمدُّ وسادي
والياسمينة رُصّعتْ بنجومها
والبِركة الذهبية الإنشاد

فالإسبانية التي أرادت أن تتباهى بغرناطة، وكل ما فيها من روائع الفن وآيات الجمال وأنواع الإبداع الذي زين غرناطة، هذه المدينة الجميلة، وأرادت من شاعرنا الدمشقي أن يعترف بعظمة أجدادها الذين بنوا ما بنوا ليخلقوا هذه الأبنية المتكلمة عن جهودهم الجبارة في البناء، ولكن نزارا الذي سمع قولها لم يستطع إلاّ أن يبث أحزانه، ويفتح جراح قلبه ربما تطلع هذه الفتاة على حقيقة الأمر بأن أجدادها العرب هم أصحاب هذه الأمجاد الخالدة لا أجدادها الإسبان حسب اعتقادها، فقال:



الزخـــرفات أكـــادُ أســـمعُ نبـــضَها
والزركـــشاتُ علـــى الـــسقوف تـــنادي
قالـــتْ: هـــنا الحمـــراءُ زَهـــوُ وجـــودنا
فاقـــرأْ علـــى جـــدرانها أمجـــادي
أَمجادُهـــا؟ ومـــسحتُ جُـــرْحاً نازفـــاً
ومـــسحتُ جـــرحاً ثانـــياً بفـــؤادي
يـــا لـــيتَ وارثتـــي الجمـــيلةَ أدركـــتْ
أن الـــذينَ عنـــتْهُمُ أجـــدادي

وشاعرنا نزار دمشقي المولد، دمشقي النـشأة، دمشقي الهوى دمشقي الشعر، الذي خلّد فيه دمشق التاريخ، دمشق العروبة دمشق الـصمود والنـضال، يقـول في نثرية بعنوان (قوس قزح):

"... أنـا محـصولٌ دمشقيٌّ مئةً في المئة.. وأبجديّتي تحتشدُ فيها كلُّ مآذن الشام، وحمائمهـا، وياسمينها، ونعناعها، قصائدي.. تضيئُها عينان دمشقيتان.."

"إن نافـورةَ المـاء فـي باحـة بيتنا الدمشقيِّ لا تزالُ تهدرُ في أذني رغم أن نافورةَ بحيرة جنيف أراها من نافذتي".

"(أنـا شـاعرُ) الأكـواريل الدمشقي. أقولها كما يقول بيكاسو، إنّهُ شاعرُ التكعيبية.. وكمـا يقـول سلفادور دالـي: إنـه شاعرُ السّرياليّة".

"... إن طفولتـي باختصار كانت علبةَ ألوان.. فإذا كنتُ قد (رسمتُ بالكلمات).. فلأن البـيتَ الـشاميَّ الـذي وُلدتُ فيه كانَ بمثابةِ (الأتولييه) الذي جهزني بكلِّ المواد الأوليّة من فراش وألوان وقماشات لأصنع لغةً فيها الكثيرُ من تشكيلات قوس قزح".

ولقـد كان بيت نزار قباني في دمشق علامة فارقة من العلامات التي رسمت الخطوط الأساسية في حياة هذا الشاعر، فجعلته (كالقط الألـيف) يأنـف أن يخرج من داره إلى الأزقة والـزواريب والحارات، فألفته لبيته أدخلته في الـسلم الحـضاري الشعري بعد أن حفظ آلاف الأبـيات الـشعرية التي كانت القاعدة الصلبة لنهوضـه فـي هذه المهمة الشاقة، يقول نزار عن طفولته في بيته العتيق في مئذنة الشحم:

طفولتـي قضيتها تحت (مظلّة الفيء والـرطوبة) التـي هي بيتنا العتيق في (مئذنة الشحم).

كـان هذا البيت هو نهاية حدود العالم عـندي، كـان الـصديق، والواحة، والمشتى، والمصيف..

أسـتطيع الآن أن أغمض عيني وأعدّ مـسامير أبـوابه، وأسـتعيد آيـات القـرآن المحفورة على خشب قاعاته.

أستطيع الآنَ أن أعدَ بلاطاته واحدةً.. واحـدة.. وأسـماك بركته.. واحدة.. واحدة.. وسلالمهُ الرخامية درجةً.. درجة..

أستطيع أن أغمضَ عيني، استعيدُ بعد ثلاثـين سـنةً مجلـس أبي في صحنِ الدار، وأمامَـهُ فـنجانُ قهوته، ومنقله، وعلبةُ تبغه، وجريدتهُ.. وعلى صفحات الجريدة تتساقط كل خمـس دقائـق زهرةُ ياسمين بيضاء.. كأنها رسالةُ حبٍّ قادمةٌ من السماء.

على السجادة الفارسية الممدودة على بـلاط الدار ذاكرت دروسي، وكتبت فروضي، وحفظـت قـصائد عمـرو بـن كلثوم وزهير والنابغة الذبياني وطرفة بن العبد.

هـذا البـيت المظلّـة تـرك بصماته واضـحة على شعري تماما كما تركت غرناطة وقـرطبة وإشـبيلية بـصماتها علـى الشعر الأندلسي".

ثـم ينـتقل نـزار من بيته الدمشقي الجمـيل إلى مدرسته التي نشأ وتعلم فيها من الصف الأول إلى الشهادة الثانوية وهي (الكلية العلمية الوطنية) فأين كان موقعها؟

يجيب نزار قائلا:

"موقـع المدرسـة كان موقعاً بمنتهى الأهمـية. فلقد كانت مزروعة في قلب دمشق القديمـة، حيث كنا نسكن، ومن حولها ترتفع مـآذن الجامـع الأموي وقبابه، ويأتلق قصر العظم بـرخامه، ومرمـره وأحواض زرعه، وبـركته الـزرقاء، وأبوابه وسقوفه الخشبية

التي تركت أصابعُ النجارين الدمشقيين عليها ثروة من النقوش، والآيات القرآنية، لم يعرف التاريخ أروع منها.

وحول مدرستنا كانت تلتف كالأساور الذهبية أسواق دمشق الظليلة:

سوق الحميدية، وسوق مدحت باشا، وسوق الصاغة، وسوق الحرير، وسوق البزورية، وسوق الخياطين، وسوق القطن، وسوق النسوان.

كانت المدرسة على بعد خطوات من بيتنا، أي أنها كانت امتداداً طبيعياً للبيت، وحجرة أخرى من حجراته.. وبالتالي: فإن طريقنا إلى المدرسة كان طريقاً فولكلورياً مغرقاً في شاميته..

سوق البزورية، وهو سوق البهارات، والتوابل، ومملكة العطارين، كان أكثر أسواق دمشق تأثيراً في أنفي وفي نفسي، ولا تزال تعبق في ثيابي منه حتى اليوم، روائح الفلفل، والقرفة، والورد، والعصفر، والمسك، والزعفران، والبابونج، واليانسون، وألوف النباتات، والأعشاب الطبية.

كان المرور من سوق البزورية في الذهاب والإياب إلى المدرسة، نوعاً من الإسراء على غيمة من العطر، وكان المرور على معمل أبي الملاصق لسوق البزورية، جزءاً من خط رجوعنا اليومي، ومناسبة لتقبيل يده، وملء محافظنا المدرسية وجيوبنا.. بما لذ وطاب من الملبّس ، وراحة الحلقوم، وأقراص المشبك بالفستق.

إذاً فالطريق إلى المدرسة كان مثيرا للأنف واللسان معاً.. ومع مغرب الشمس كنا نعود إلى البيت حيث أمي الملكة، وكنا أغلى رعاياها".

أما ثالثة الثلاثة بعد البيت والمدرسة تأتي في حياة الشاعر نزار (فهي دمشق) حيث رفض أن يكون محايداً في حبه لها فيقول:

"في دمشق لا أستطيعُ أن أكونَ محايداً..

فكما لا حياد مع امرأة نحبها.. فلا حياد مع مدينة أصبح ياسمينها جزءاً من دورتي الدموية، وأصبح عشقي لها فضيحة معطرة تتناقلها أجهزة الإعلام.

هذه المدينة تخضني، تشعلني، تضيئني، تكتبني، ترسمني باللون الوردي، تزرعني قمحاً وشعراً وحروفاً وأبجدية، تغير تقاطيع وجهي، تحدّد طول قامتي، تختار لون عينيّ، تؤكدني، تجددني تقبلني على فمي، فيتغير تركيب دمي..

في الشام لا أستطيع إلاّ أن أكون شامياً.

الواقع أن دمشقيتي هي نقطة ضعفي وقوتي معاً..

إن دمشق تتكمش بي كما يتكمش الرضيع بثدي أمه.

مزروعة بي دمشق، كما الحلق الإسباني مزروع في آذان الإسبانيات. مستوطنة في صوتي، في حبري، وفي دفاتري، كما يستوطن السكر في شرايين العنقود.

كل حروف أبجديتي مقتلعة حجرا حجراً من بيوت دمشق.. وأسوار بساتينها، وفسيفساء جوامعها.

قصائدي كلها معمرة على الطراز الشامي.

كل ألف رسمتها على الورق مئذنة دمشقية..

كل ضمة مستديرة هي قبة من قباب الشام..

كل حاء هي حمامة بيضاء في صحن الجامع الأموي..

كل عين هي عين ماء..

كل شين هي شجرة مشمش مزهرة..

كل سين سنبلة قمح.

كل ميم هي امرأة دمشقية.. وما أكثر الميمات في دواوين شعري.

وهكذا تستوطن دمشق كتابتي، وتشكل جغرافيتها جزءاً من جغرافية أدبي.

لا يمكـــن الفصل أبدا بين الحبر الذي أكتب به، وبين أنهار دمشق السبعة".

ولا يـــستطيع أي امـــرئ يدخل دمشق يزورها أو يعيشها إلا أن يزور المسجد الأموي الكبيـــر، فكيف لا يزوره ابن دمشق نزار قباني وهـــو الـــذي تغنّـــى بجمال دمشق واخضرار الطبـــيعة وعظمة الأوابد التاريخية التي تنطق حـــضارة وتـــتكلم مدنية عن ذلك التاريخ الذي يمـــتد إلى مئات السنين، فها هو شاعرنا نزار يدخل صحن الجامع الأموي فيقول:

أدخل صحْنَ الجامع الأمويّ
أسلّمُ على كل من فيه
زاويةً.. زاويةْ
بلاطةً.. بلاطةْ
حمامةً.. حمامةْ
أتجوّلُ في بساتين الخطِّ الكوفي..
وأقطف أزهاراً جميلةً من كلام الله..
وأسمعُ بعيني صوت الفسيْفساء..
وموسيقى مسابح العقيق..
تأخذني حالةٌ من التجلي والانخطافْ،
فأصعدُ درجات أول مئذنة تصادفني
منادياً:
(حيّ على الياسمينْ)
(حيّ على الياسمين)

وكـــيف لا يحدثـــنا الشاعر عن البيت الدمـــشقي الذي خرج على خارطة البيوت في العـــالم أجمـــع وابتدع هندسة خاصة جداً به، فيقول نزار:

البيتُ الدمشقيّ
خارجٌ على نصّ الفن المعماريّ
هندسةُ البيوت عندنا..
تقومُ على أساس عاطفيّ
فكلُّ بيت.. يسندُ خاصرةَ البيت الآخرْ
وكلُّ شرفة..
تمدُّ يدها للشرفة المقابلَةْ..
البيوتُ الدمشقيّة بيوتٌ عاشقةْ..
فهي تسلم على بعضها صباحاً..
وتتبادل الزيارات..
في السرّ ليلا..

وطبيعي أن نزارا يحب دمشق، ولكنه لا يتعـــصب لهـــا، بل إن كل مدينة عربية هي أمه، يحبها كما تحبه، ويعتز بها كما تعتز به، فالـــوطن العربـــي المـــوحد هـــدف كل إنسان شريف، فيقول:

كلُّ مدينة عربية هي أمي..
دمشق، بيروت، القاهرة، بغداد، الخرطوم، الدار
البيضاء، بنغازي، تونس، عمّان، الرياض
الكويت، الجزائر، أبو ظبي وأخواتها..
هذه هي شجرة عائلتي..
كل هذه المدائن أنزلتني من رحمها
وأرضعتْني من ثديها..
وملأتْ جيوبي عنباً، وتيناً، وبرقوقا..
كلُّها هزّت لي نخلها.. فأكلت..
وفتحتْ سماواتها لي.. كراسةً زرقاء..
فكتبت..
لذلك، لا أدخل مدينة عربية.. إلاّ وتناديني:
(يا ولدي)..
لا أطرق باب مدينة عربية..
إلاّ وأجدُ سرير طفولتي بانتظاري..
لا تنزف مدينة عربية إلا وأنزف معها..

وحـــين أطلت النكسة برأسها الكئيب، أثّـــرت على عاشق دمشق فلم يتمالك نفسه إلاّ أن يخاطبها مخاطبة المحب الجريح، طالبا منها أن تـــضمّد جراحه وتنفي همومه، ليرجع ذلك المحبّ العابث في أحضانها فيقول:

فرشـــت فـــوق ثـــراك الطاهـــر الهـــدبا
فـــيا دمـــشق، لمـــاذا نـــبدأ العتـــبا؟
حبيبتـــي أنـــت.. فاســـتلقي كأغنـــية
علـــى ذراعـــي، ولا تـــستوضحي الـــسببا
يـــا شـــام إن جراحـــي لا ضـــفاف لهـــا

فمسّحي عن جبيني الحزن والتعبا
وأرجعيني إلى أسوار مدرستي
وأرجعي الحبر والطبشور والكتبا
هذي البساتين كانت بين أمتعتي
لما ارتحلت عن الفيحاء مغتربا
فلا قميص من القمصان ألبسه
إلاّ وجدت على خيطانه عنبا
كم مبحر، وهموم البر تسكنه،
وهارب من قضاء الحب، ما هربا

وفي تشرين التحرير حيث تعانق الحرف مع الرصاصة، والكلمة مع البندقية وبيت الشعر مع المدفع والصاروخ، فأصبح الغزل العربي أكيداً يمحو آثار النكسة، وبعد أن ألقى الرئيس الراحل حافظ الأسد رحمه الله تعالى خطابه التاريخي الذي قال فيه:

"إنكم أبناء أمة عرفت على مدى التاريخ بمواقف الرجولة والإباء، بمواقف البطولة والفداء، أبناء أمة حملت رسالة النور والإيمان إلى أصقاع الأرض، وشهد لها العالم قاطبة بأسمى الصفات، وأنبل الأخلاق.

فيا أحفاد أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضي الله عنهم، ويا أحفاد خالد، وأبي عبيدة، وعمرو، وسعد، وصلاح الدين، إن ضمير أمتنا ينادينا، وأرواح شهدائنا تستحثنا أن نتمثل معاني اليرموك والقادسية، وحطين، وعين جالوت، وإن جماهير أمتنا من المحيط إلى الخليج تشخص بعيونها، وأفئدتها إلى صمودنا العظيم، وكلها أمل وثقة بأننا إلى النصر سائرون"..

وكان لا بد أن يسجل الشاعر نزار هذه الانتصارات في مشاعره وأحاسيسه قبل أن يرصفها حروفاً وكلمات، ومما قاله مبتهجاً:

جاء تشرين يا حبيبة عمري
أحسن الوقت للهوى تشرين
ولنا موعد على جبل الشيخ
كم الثلج دافئ وحنون
سنوات سبع من الحزن مرّت
مات فيها الصفصاف والزيتون
سنوات فيها استقلت من الحب
وجفت على شفاهي اللحون
كيف أهواك، حين حول سريري
يتمشى اليهود والطاعون

ويستمر نزار قباني مسجلا الانتصارات الكبيرة التي أحرزها العرب في تشرين التحرير بعد عهود من اليأس والفرقة والسآمة التي حلت بنا من المحيط إلى الخليج، فقال:

يا شام يا شام يا أميرة حبي
كيف ينسى غرامه المجنون
أوقدي النار فالحديث طويل
وطويل لمن نحب الحنين
شمس غرناطة أطلت علينا
بعد يأس وزغردت ميسلون
جاء تشرين إن وجهك أحلى
بكثير ما سرّه تشرين
كيف صارت سنابل القمح أعلى
كيف صارت عيناك بيت السنونو
يا دمشق البسي دموعي سوارا
وتمني فكل صعب يهون
وضعي طرحة العروس لأجلي
إن مهر المناضلات ثمين
رضي الله والرسول عن الشام
فنصرٌ آت وفتح مبين

وما تسجيل نزار لهذه الانتصارات، وما فرحه بها، إلا من أجل دمشق الشام، دمشق العروبة، دمشق التاريخ والمستقبل.

وهواه لها قديم قدم الحياة، جديد جدة الحضارة والتقدم. يقول في القصيدة الدمشقية:

هذي دمشق وهذي الكأس والراح
إني أحب وبعض الحب ذبّاح
أنا الدمشقي لو شرحتم جسدي
لسال منه عناقيد وتفاح

ولــــو فتحـــــتم شــــــرابيني بمديـــــــتكم
ســـمعتم فـــي دمـــي أصـــوات مـــن راحـــوا
زراعـــة القلـــب تـــشفي بعـــض مـــن عشقوا
ومـــــا لقلبـــــي إذا أحببـــت جـــرّاحُ
مـــآذنُ الـــشام تبكـــي إذ تعانقنـــي
وللمـــــــآذن كالأشـــــــجار أرواحُ
هـــنا جـــذوري هـــنا قلبـــي هـــنا لغتـــي
فكـــيف أوضـــحُ؟ هـــل فـــي العـــشقِ إيضاحُ؟

ولـــم يكـــتف نزار بوصف دمشق في شعره ونثره، بل تعدى ذلك بتحويلها إلى موال يـــردده المنـــشدون والمغنون على طريقة (أبو الزلف) فلنسمع إليه في مواله الدمشقي:

قـــل للـــذين بـــأرض الـــشام قـــد نـــزلوا
قتـــيلكم لـــم يـــزل بالعـــشق مقـــتولا
يـــا شـــامُ يـــا شـــامة الدنـــيا ووردتهـــا
يـــا مـــن بحـــسنك أوجعـــت الأزامـــيلا
وددت لـــو زرعونـــي فـــيك مـــئذنة
أو علقونـــي علـــى الأبـــواب قـــنديلا
يـــا بلـــدة الـــسبعة الأنهـــار يـــا بلـــدي
ويـــا قميـــصاً بزهـــر الخـــوخ مـــشغولا
هـــواكَ يـــا بـــردى كالـــسيف يـــسكنني
ومـــا ملكـــتُ لأمـــر الحـــبّ تـــبديلا
يـــا شـــام إن كـــنتُ أُخفـــي مـــا أكابـــده
فأجمـــلُ الحـــبّ حـــبٌ. بعـــدُ. مـــا قـــيلا

وحـــين يكـــون نزار بعيداً عن دمشق يجعل منها رسائل عشق ومحبة يبثها إلى أمه، فـــي كـــل بلد يحل فيه، فهو لا ينسى ليلها ولا فلّهـــا ولا مآذنها، يقول نزار في إحدى قصائده المرسلة إلى أمه:

مضى عامان يا أمي
وليل دمشق.. فل دمشق..
دور دمشق..
تسكن في خواطرنا..
مآذنها.. تضيء على مراكبنا
كأن مآذن الأموي قد زرعت بداخلنا
كأن مشاتل التفاح تعبق في ضمائرنا..
كأن الضوء والأحجار..
جاءت كلها معنا..

وأهـــم مـــا يميـــز شـــعر نزار (اللغة الدمـــشقيةُ) التي جعلها مفروشة في كل مكان لتغطـــي تراب الوطن في المدن والقرى وعند الـــرجال وعـــند النساء ولدى الفتيات والفتيان ومـــع التاجـــر والموظـــف داخل حدود الوطن (سورية) وخارجه، فلنستمع إلى الأديبة اللامة قمـــر كيلانـــي تحدثـــنا عن هذه اللغة بعنوان (دمشقيات نزار قباني..) قائلة:

"نـــزار أيهـــا المحب.. يا عاشقا أبديا لدمـــشق الحـــب.. علمنا كيف نحب من كتاب نزار قباني شاعر لكل الأجيال الذي طبعته دار سعاد الصباح في الكويت.."

وتستمر في الحديث عن اللغة الجميلة اللغـــة المطـــرزة بألوان قوس قزح على هيئة دمشقية مميزة:

"أما عن اللغة الدمشقية.. أو المفردات الدمـــشقية فهـــذا ما سأمر عليه بشكل موجز، فمـــن خـــلال بعض القصائد، وخاصة تلك التي قالهـــا في دمشق أو أشار بها إلى دمشق، إنه قامـــوس خاص بدمشق.. ولغة لها رنينها في أســـماع الدمشقيين وقلوبهم.. ولها مدلولاتها التي هي خلاصة لتاريخ حضاري.. امتزج فيه الدمشقيون بالأمم الأخرى من فارسية وتركية وهـــندية وآسيوية، بل من عمق أوروبا وبلاد السكسون والغال.. ثم إن هذه المفردات حمّلت معانـــيها كما أراد لها الدمشقيون، وخاصة إن الـــشام التـــي هي البلاد وتطلق تخصيصا على دمـــشق كانـــت معبـــرا تجاريا هاما على مدى العـــصور ومـــنها انطلق أيضا التجار يجوبون أصـــقاع العالم، وكما كانوا يحملون بضائعهم، ويـــزودون بأخرى، فقد كانوا يحملون مفردات وتعبيـــرات أطلقـــوها علـــى ما بين يديهم وما ابتكـــروه، فجاء فريداً لكلمات: الفل، الياسمين، الشمـــشير، الـــشب الظـــريف، عروسة الزيت

والزعتر، الشراشف، المكاتيب، الطوق، الحلق، التفتا، العرقسوس.. الخ..

ولا شك أن روح الجماعة التي كانت تسيطر على حياة الدمشقيين لم تزل تعيش في نفوس بعض الشرفاء الذي عرفوا قيمة الشهامة والكرامة للناس دون تفريق بين غني وفقير وبين رجل وامرأة".

ومن اللافت للنظر المقال الذي كتبه الدكتور (صباح قباني) في جريدة تشرين الدمشقية بعنوان (التراث بين الحفظ واللا مبالاة). فقد جاء في نهايته خبر طريف يعبر عن أصالة الدمشقيين أينما وجدوا، يقول الدكتور صباح:

"ولأختم بنقطة مضيئة أشارت إليها الدكتورة نادية خوست حين تحدثت عن حميمية العلاقات بين سكان الأحياء الشعبية القديمة، فأحب أن أذكر في هذا الصدد تصرفا دمشقيا نبيلاً قد يدخل في باب اللا معقول.

فبيتنا الذي كنا نقطنه حتى بداية الخمسينيات في القرن الماضي في حي مئذنة الشحم بدمشق القديمة، والذي نشأنا ودرجنا فيه أنا واخوتي الذين منهم الشاعر نزار؛ أقول إن هذا البيت الذي باعه والدي لأحد وجهاء الحي هو السيد عباس نظام، منذ شرائه حتى اليوم على أن يقول لكل زواره: (هذا بيت الشاعر نزار قباني)، وكان يفتح بابه لكل من يقصده من صحفيين يرغبون في الكتابة عن البيت الذي نشأ فيه نزار، بل كان يصر على تقديم القهوة والحلوى لهم.

أما التصرف النبيل الذي قام به الرجل، والذي يعجز المرء عن تصديقه، فهو أنه يوم وفاة نزار، وكان قد مر على شرائه للبيت خمسن عاماً، فتحه لمدة ثلاثة أيام، كما عادة الدمشقيين لتقبل العزاء، وكأنه واحد من أسرتنا، وتكلف بالطبع أجور قراء القرآن وصانعي القهوة وموزعيها طوال تلك الأيام.

وأعجب ما في الأمر أن جموعاً غفيرة من المعزين جاء إلى بيت السيد عباس نظام لتواسيه في رحيل الشاعر نزار، رغم أنه لم يكن له معرفة سابقة به، كما أنه لم يشأ أن يخبرنا بما فعل، ولم ندر به إلا فيما بعد من الناس الآخرين!"

ومع إعجابي الكبير برأي الدكتور صباح قباني في هذه الحادثة الرائعة التي قام بها السيد عباس نظام عندما فتح بيته للمعزّين بوفاة نزار، فلا أرى ذلك غريبا لأن طبيعة الدمشقيين منذ سنوات كانت تقوم على الإيثار للغير ومساعدة الآخرين، وإنقاذ المرضى، وفتح دور العلم للطلبة وفتح الجمعيات الخيرية للمحتاجين، ويظهر ذلك أكثر ما يظهر في رمضان المبارك فما من امرأة تطبخ لعائلتها إلاّ وتحسب حساب جيرانها من فقراء الحي، ولكن الغريب أن تنقلب هذه المفاهيم والأخلاق رأسا على عقب، فيصبح الكريم بخيلا، والعظيم صغيرا، والصغير متعاظماً، لا رأفة في قلبه ولا رحمة، واخوتنا الذين يقتلون في فلسطين والعراق، ونحن نشاهدهم في القنوات العربية وغير العربية دون أن تتحرك فينا ذرة من عروبة أو نخوة من شهامة.

وأخيراً أحب قبل أن أختم أن أضيف نثرية لنزار قباني تثبت فيها دمشقيته فيقول:

"ولقد سافرت كثيراً بعد ذلك، وابتعدت عن دمشق موظفا في السلك الدبلوماسي نحو عشرين عاما، وتعلمت لغات كثيرة أخرى، إلا أن أبجديتي الدمشقية ظلت متمسكة بأصابعي وحنجرتي، وثيابي. وظللت ذلك الطفل الذي يحمل في حقيبته كل ما في أحواض دمشق، من نعناع، وفل، وورد بلدي.

على كل فنادق العالم التي دخلتها.. حملت معي دمشق، ونمت معها على سرير واحد..".

وهكذا نرى أن شعر نزار في دمشق قد اصطبغ بلون أخضر سلط على الحياة الدمشقية التي عاشها الشاعر منذ طفولته وحتى صباه وشبابه وكهولته وكل ذرة فيه تنبض بحب دمشق وبعض دمشق، فصارت في الدنيا دمشقان دمشق العروبة والأمل، ودمشق نزار قباني....





شاعر..

شعر : مدحة عكاش

سَمعَتني ذاتُ العيون السواحرْ
أرْسل الشعرَ ناعمَ الجَرسِ عاطرْ

فشجاها رنينُهُ، وأَصَاختْ
لحديثِ الهوى ونجوى الضمائرْ

ثمَّ قالتْ: وقد عَراها فتورٌ
كيفَ أصبحت في حياتكَ شاعرْ؟

كيفَ أصبحتُ؟ والوجودُ مليءٌ
بالجمال العُلْويّ وحْي الخواطرْ

والربيعُ المعطارُ حولي وشيٌ
أبدعتْ صنعَهُ أناملُ ساحرْ

كم تحيَّرتُ بينَ زهر وعطر
وشفاه، وأكؤس، ومحاجرْ

وقدود - يصونُها اللهُ - تُذكي
في فؤادي مشاعلاً ومشاعرْ

* * *

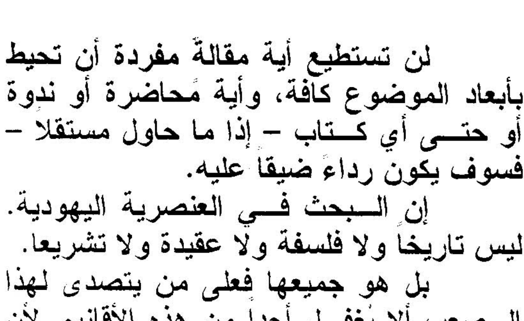
تلكَ عندي مناهلُ الشعرِ، كانتْ
في حياتي وفي العهودِ الغوابرْ

وإذا بي أراك أندى ربيعاً
منْ ربيعي وعطرِهِ والأزاهرْ

سوف أبقى على هواك مكبّاً
وسأحيا بقيّةَ العمر شاعرْ







العنصرية والوجود الصهيوني ج١

بقلم الدكتور المحامي:
أحمد عمران الزاوي

لن تستطيع أية مقالة مفردة أن تحيط بأبعاد الموضوع كافة، وأية محاضرة أو ندوة أو حتى أي كتاب – إذا ما حاول مستقلا – فسوف يكون رداء ضيقا عليه.

إن البحث في العنصرية اليهودية. ليس تاريخا ولا فلسفة ولا عقيدة ولا تشريعا.

بل هو جميعها فعلى من يتصدى لهذا الصعب ألا يغفل أحدا من هذه الأقانيم. لأن حاجة البحث قد تستدعي منه العودة إلى التاريخ فيما هو يكتب عن العقائد. وقد تستدعي النظر الفلسفي فيما هو يكتب عن الأدب أو السياسة أو التشريع.

أن استخراج الصورة الكاملة للعنصرية الصهيونية، وتتبع أصولها منذ الكلمات الأولى التي تلقاها موسى على جبل حوريب حتى حكومة (شارون) وما ترتكبه من أعمال ضد الفلسطينيين، وما طرحه نظريوهم وفلاسفتهم من الأفكار هو فوق الطاقة المنفردة لأي كتاب أو محاضرة.

وحسبي هنا – وأعترف بأن ما أقدمه هو جهد المقل – إجمال دون تفصيل. وإشارات دون تطويل. وإبطال ما أمكن من المعلومات بما أمكن من الاختصار.

لذلك: التزمت في هذه الأطروحة بالنهج الآتي:

١ – سوف أضع تلك النصوص التي رفعها اليهود فوق الرؤوس. وما زالوا بها منذ ثلاثين قرنا على مدى الأزمنة والأمكنة، حتى ملأوا بها قناعات الناس. وخاصة أولئك القائمين على صناعة القرارات الدولية.

لقد عكفوا على مضامينها في كتبهم وخطبهم وكتاباتهم ومحاوراتهم، بنشاط لا يهدأ ولا يتعب ولا يلهث. حتى أسكنوها في رؤوس الساسة الذين يرسمون خرائط الدول إن العيارات النارية الدينية، بطابعها العنصري الأحم، استطاعت بطول الممارسة ودقة التصويب أن تقفز بالمطاليب اليهودية إلى صدر الاستراتيجية الدولية. حتى غدا من النادر على امتداد القرن العشرين أن تخلو استراتيجية عظمى من فقرة بارزة تشدد على حق اليهود في فلسطين.

٢ – وبعد استعراض النصوص، سوف أعرض القفزات النوعية التي حملت أشتات

اليهود إلى فلسطين منذ الثورة الفرنسية. ولن أشعر بالحرج إن اعترفت بأن ما أقدمه قد لا يكون كامل الحقيقة. لأني مؤمن بأن الحقيقة نهر يتدفق بلا انقطاع إلى بحر المعرفة، متلقيا روافده من جميع الجهات.

النصوص وطابعها العنصرية

سوف نغلق موقتاً كتاب التوراة وجميع كتب التاريخ. ونتركها جميعاً على مدى الذراع منا لنتوقف في الثلث الأول من شهر تشرين الثاني من عام ١٩٧٥، ونستعيد ظروف القرار ٣٣٧٩، الذي أدانت فيه جمعية الأمم نظام الحكم في إسرائيل بالعنصرية. قالت عنه بكل صراحة إنه يقوم على التمييز العنصري.

آنذاك لم يكن العالم قد استفاق من مذهلات حرب تشرين، فأبان نشوة آثارها. وما أحدثته وحدة العرب خلالها من تأثير على اقتصاد العالم وسياسته وصناعته، اضطرت جمعية الأمم - ولأول مرة - إلى الإصغاء للصوت العربي، فأصدرت القرار ٣٣٧٩، الذي اعتبر الحكم الإسرائيلي حكما شرسا تربطه الروابط العنصرية بنظامي الحكم في (زمبابوي - روديسيا) و(جنوب أفريقيا) ويقوم في هذه البلدان الثلاثة على (احتقار الآخر) و(اعتقال حريته) و(كتم أنفاسه).

لقد وقع القرار على رأس إسرائيل وقوع الصاعقة. عبَّر عنه موقف سفيرها في الأمم المتحدة، حاييم هيرتزوك الذي وقف على منبر الأمم ومزّق القرار وهو يتميز غيظا وقال:"إن القرار الأكثر جهلا وتسرعا حتى الآن".

في خلال تلك الظروف الباهرة وبعد عشرين يوما من صدور القرار استطاعت الدبلوماسية السورية النشيطة أن تكثف حول رأيها عشرات الدول الصديقة، فأجبرت مجلس الأمن على أن يتخذ القرار ٣٨١، الذي اعتبر منظمة التحرير هي الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني ووجه الدعوة إليها لحضور أي اجتماع تعقده المنظمة لبحث القضية الفلسطينية.

وفي اليوم الأول لأول اجتماع تناقلت وسائل الإعلام صورة رئيس المنظمة، وهو يقف على منبر الأمم المتحدة، حاملاً غصن الزيتون، معلناً أن السلام هو الخيار الاستراتيجي الوحيد للشعب الفلسطيني. حتى ذلك الوقت كان الموقف العربي موحداً وكانت الدبلوماسية العربية تتحرك تحت شعار التضامن العربي. ولكن ذلك - يا للأسف - لم يكن إلا مؤقتا ولم يكن إلا في حدود التصاريح الإعلامية.

لو بذلت الدبلوماسية العربية. جهوداً صادقة، لاستطاعت في ظل حرب تشرين أن تستثمر الأسباب الموجبة للقرار ٣٣٧٩ التي قالت بصراحة: "إن النظام السياسي القائم في فلسطين يقوم على مذهب (خاطئ اجتماعيا) و(مشجوب أدبيا) و(ظالم إنسانيا)"

لقد كانت الفرصة مواتية. وكان في مقدور الدبلوماسية العربية (الموحدة) بما كانت تملكه من (قوة التأثير العالمي) و(من جهارة الحق) و(من الحضور الاستراتيجي الفاعل). أن تنتزع القرار بسحب الشرعية التي كانت الأمم قد منحتها إلى إسرائيل في عام ١٩٤٨، أو على الأقل كان في إمكانها انتزاع قرار بتحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين. كما فعل الكتاب الأبيض، أثناء الانتداب البريطاني، ولكن العرب بدلا من ذلك أغفوا في ظلال تشرين مكتفين به عن سواه على أنه محى من التاريخ جميع الهزائم السياسية والعسكرية.

لقد تحول تشرين إلى نشيد تردده حناجر الكبار والصغار وأضحى علاما بارزا أسطوريا يتردد في المدارس والجامعات والمكاتب والمكتبات. فلا يخلو منه كتاب ولا جدار ولا مصنع أو مسرح أو ملعب.

نعم كانت حرب تشرين يقظة قومية كبرى حقق العرب فيها أول نصر عسكري وسياسي بعد فترة من الهزائم والإذلال استمرت ثمانية قرون.

ولكنها - على عظيم شانها - لم تحقق لنا جميع الآمال بل ظلت تفصلنا عنها مسافات حضارية شاسعة. ومع هذا فقد أوغلنا في الاسترخاء تحت ظلال تشرين تماما مثلما فعل أجدادنا القدماء من بني تغلب الذي تهكم عليهم الشاعر بقوله:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة

قصيدةً قالها عمر بن كلثوم

فعلى الجانب الثاني من المعادلة، كانت إسرائيل متوترة الأعصاب، رفضت القرار ١٩٧٥/٣٣٧٩ مثلما رفضت نتائج حرب تشرين.

فأعلنت تعبئة عامة شملت الأحياء والأشياء فيها كافة، وكان لها تحرك الأفعوان في مرونته وتسرُّبه، فما مرَّ يومان على تمزيق القرار حتى واجهتنا وواجهت العالم المتعاطف معنا بالخطوات المتحدية التالية:

١- جندت وسائل الإعلام من صحف ومجلات وأجهزة الإيصال المرئي والمسموع في داخل إسرائيل، وفي داخل البلدان المتعاطفة معها في حملة شديدة اخترقت الأسماع ووصلت إلى كل بيت ومكتب، تنديدا بالقرار.

٢- بعد صدور القرار بيومين أي في الثالث عشر من شهر تشرين الثاني ١٩٧٥ أصدر مجلس الكنيست قرارا على شكل نداء إلى جميع يهود العالم لكي يهاجروا إلى إسرائيل ويقفوا إلى جانبها في هذا الزمن الصعب.

٣- وكان إسحق رابين قد أدلى بتصريح وهو رئيس مجلس الوزراء آنذاك إلى جريدة (عال همشمار) قال فيه: "إن مصير اليهود مهدداً بالخطر بسبب التحالف الكريه بين المشائخ وملوك النفط والكتلة الشيوعية."

٤- التفت على الدبلوماسية العربية واستهدفت تفكيك وحدة كلمتها فعمدت إلى مصر وهي أقوى الدول المواجهة فعقدت معها بمعونة الولايات المتحدة معاهدة فك الارتباط التي تحولت فيما بعد إلى معاهدة سلام حقيقة وتطبيع، صارت صياغتها وتوقيعها في مخيم داوود كامب ديفيد، بين رئيسي مصر وإسرائيل، وكفالة الولايات المتحدة وإشرافها.

لقد بلغت إسرائيل بتلك المعاهدة أقصى أهدافها في تقزيم القرار ٣٣٧٩، وتفريغه من معناه. مما جعل المراقبين السياسيين يعقبون قائلين: "لقد قصمت المعاهدة ظهر القرار ٣٣٧٩ لأن الجمعية العمومية اتخذته انتصارا للحق العربي، فجاءت المعاهدة متضمنة اعتراف مصر - أبرز جهات النضال العربي - بشرعية الدول الإسرائيلية وشرعية قيامها على أرض فلسطين. والتزام مصر تجاه إسرائيل بما يفرضه القانون الدولي من قواعد الاحترام نافية بذلك كله الإدعاء بعنصرية النظام ولا إنسانيته.

٥- تحرك اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة على جميع المستويات السياسية والإعلامية والاقتصادية، واستمر في تحركه دون توقف حتى غدا نظرية سياسية وفلسفية، اخترقت تخوم التشريع، وأضحت من المواضيع التي تتصدر مناقشات مجلسي الكونغرس والشيوخ، حتى تطورت إلى احتجاجات سياسية أميركية صارخة، ففي إحدى جلسات الجمعية العمومية احتج سفير الولايات المتحدة منفعلا صارخا متجاوزا (غضب هيرتزوك) من القرار، قائلا إن بلاده ترى أن القرار هو الأكثر خزيا وجهلا وإخجالا واعتباطا حتى الآن.

٦- بدأ السعي حثيثا، لاقتلاع آثار حرب تشرين من الذاكرة وإخماد جذوة الغرور العربي الذي لم تعد تطيق إسرائيل وأميركا. فتركزت جهودهما ضمن القنوات التالية:

أ- مازالوا، يثابرون، حتى فككوا الطوق الذي كانت فرضته على إسرائيل ثلاثون دولة إفريقية، حيث عادت العلاقات الدبلوماسية معها إلى طبيعتها وانتهت حالة القطيعة التي أقامتها تلك الدول، في مواجهة إسرائيل تأييداً للعرب في حربهم معها؟ إذ لم يعد لها مبرر بعد أن عقدت مصر معها معاهدة كامب ديفيد.

ب- أما القرار ٣٣٧٩ الذي كان لا يزال شوكة في خاصرة إسرائيل، فقد انصبت الجهود إلى إلغائه نهائيا.

وبعد جهود دبلوماسية مكثفة، استطاعت الصهيونية أن تفرض رأيها على مواقع القرار الأميركي والأسترالي.

- فصدر في تموز ١٩٨٥ قانون عن الكونغرس يلزم الحكومة بالعمل على إلغاء القرار.
- وفي تشرين الأول من ذات العام وفيما كانت الجمعية العمومية تستعد للاحتفال بذكرى أربعين عاما على قيامها. وجه إليها

الرئيس (ريغان رسالة قال فيها: إن القرار ٣٣٧٩، هو أبشع قرار اتخذته الجمعية في كل تاريخها).

في أواخر عام ١٩٨٥ أصدر البرلمان الاسترالي قانونا حث فيه الحكومة على بذل الجهود لإلغاء القرار واصفا إياه، بأنه "تشويه لحقيقة الصهيونية وعثرة في طريق السلام ومتناقض مع ميثاق الأمم المتحدة".

هذا وقد كان من الطبيعي أن تظهر في الجانب العربي قوى متشبثة بالقرار. ولكن تأثيرها الدولي كان محدوداً جداً، ولولا الجهود الشديدة التي بذلها الرئيس الراحل حافظ الأسد لما كان للجهود العربية الأخرى أي وزن. ففي مؤتمر القمة الإسلامي المنعقد في عام ١٩٨٧ ألقى الرئيس حافظ الأسد خطاباً تاريخيا يبين فيه ما تعنيه العنصرية التي يمارسها الحكم الإسرائيلي من تأثير على العرب الفلسطينيين. فاتخذ المؤتمر بالإجماع قرارا حضّ الجمعية العمومية للاحتفاظ بالقرار وركز - بذات الوقت - على حملة الدعاية الشرسة التي تقودها إسرائيل والولايات المتحدة، ضد الدول الإسلامية والعربية.

النصوص العنصرية التي قام عليها الكيان الصهيوني

قبل أن نبدأ بقراءة العنصرية، في التوراة، نود تقديم تعريف مختصر، لمفهوم العنصرية. أخذاً من لسان العرب للعلامة اللغوي (محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن منظور الأنصاري المصري).

فالعنصرية: في اللغة نسبة إلى العنصر.

والعنصر: هو الأصل. عبّر عنها الشاعر بقوله:

تمهجروا وأيّما تمهجر

وهم بنوا العبد اللئيم العنصر

قال الأزهري: "العنصر أصل الحسب"

هذا هو التعريف اللغوي فلا يصح الادعاء بالعنصرية إلا بمقتضاه، حتى إذا قام انقطاع، مهما كان زمانه، بطل الادعاء بالعنصرية.

وفي اليهودية

لا تقوم العنصرية على اللغة. لأنه لا يوجد جامع نسبي بين هذه الأجناس الخمسة التي تكوّنت منها دولة اليهود. بل تقوم على مقولتين هما:

- زعم الانتماء المباشر إلى نبي الله إبراهيم الذي جعله الله للناس إماما.

- فهذا الانتماء ميزهم - كما يزعمون - عن باقي الأمم. تمييزا عنصريا عبرت عنه الفقرة ٣/٦١ من سفر إشعيا التي تقول: ((ويقف الأجانب ويرعون غنمكم، ويكون بنوا الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتدعون كهنة الرب تسمّون خدّام إلهنا تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمرون)).

- إنهم - من دون الناس - خلقوا على صورة الله ومن عنصره. أما شعوب الأرض كافة. فهي مخلوقات طفرت من زرائب الحيوانات.

نصوص عديدة ومماثلة وردت في التوراة وكرّسها التلمود، التف من حولها اليهود وما زالت منذ ثلاثين قرنا دستور الالتفاء الذي يجمع يهود الأمم في قارات الأرض.

فأنت أيها القارئ حيثما وقع بصرك على (التوراة) أم (التلمود) أم (بروتوكولات حكماء صهيون) أم (كتب داوود الثورة هيتزل) أم (مؤلفات وخطب مفكريهم وسياسييهم) من كتاب (الشرق الأوسط الجديد لبيريز) وكتاب (مكان بين الأمم لبنيامين نتنياهو). فسوف تكون وجهاً لوجه أمام الذات الصهيونية العنصرية المتطرفة التي تجمدت من الداخل فلم تبق فيها قطرة من الرحمة أو الاحترام للآخرين. سوف أقتصر هنا على بعض النصوص التوراتية، مكتفياً بها عن سواها.

في التوراة

جاء في سفر التكوين (٩) أن نوحاً، ابتدأ فلاحاً فغرس كرماً وشرب خمرا، فسكر

وتعَرى داخل خبائه، فأبصر حام أب كنعان، عورة أبيه فأخبر أخوته (سام) و(يافث) فأخذ سام الرداء مع يافث ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره وعلم ما فعل به ابنه الصغير قال:((ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته. وقال مبارك الرب إله سام ويافث وليكن كنعان عبداً لهم))

وفي الاصحاح العاشر وما بعده: ((أما سام بن نوح الذي نال البركة. فقد تسلسل نسله إلى ارفاكشاد ثم شالح، ثم عابر، ثم فالج، ثم رعو، ثم سروج، ثم ناحور، ثم تارح، الذي ولد إبراهيم وناحور وهاران فأخذ تارح ولده إبرام ولوطا ابن هاران فخرجوا معا من أور الكلدانيين فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك))

بعد هذه الفقرات، وتعليقاً عليها، نبدي بعض الملاحظات كما يلي:

كيف - بمقتضى هذه القصة التي كتبت بعد نوح بعشرات القرون - حلت لعنة أبدية على كنعان وذريته، من أجل نظرة غير مسموحة، وغير متعمدة نظرها أبوه؟

وإن كان نوح قد عب من الخمر حتى انطفأ إدراكه. فخلع ثيابه فأي ذنب جناه الذي رآه دون قصد عارياً؟ وهل يستحق جلب الرداء هذه البركة لسام وذراريه إلى أبد الآبدين؟

ولنفرض أن الأسطورة السامية وجدت في التاريخ. فإن سام هو الجد السابع لإبراهيم. وإبراهيم ولد إسماعيل وإسحق. فأي سبب يدعو أبناء إسحق للغرور والغطرسة على أبناء إسماعيل؟ وبأي حق تعتبر (السامية) وقفاً على اليهود؟

وإذ تزعم النصوص التوراتية أن (إيل) أمر (خليله إبراهيم) أن يذهب من حاران ليملكه أرض كنعان. ويسلطه عليها مع ذراريه. وعلى قاطنيها، طرداً وتصفية فأية عدالة تسكن في صدر ذلك الإله. وهو يقيم قوماً من خلقه في مكان قوم من خلقه، ويطلق أيديهم في نفوسهم وأراضيهم ومواشيهم؟

ثم أي طبيعة عدوانية تنطوي عليها تلك الذات الإلهية. التي لا تكتفي بالتحريض على الغضب والاعتداء، بل تشترك به، وتقود جيوش العدوان، وتصطبغ يداها بدماء الأبرياء.

يقول اليهود بمزيد من الزهو والغرور: "إن تاريخ الشعب اليهودي وجغرافيته وضعها الله بيده".

وبذلك فهما يختلفان عن تواريخ وجغرافيات الأمم. فالمحددات الجغرافية التي سمتها شعوبها أوطاناً، هي أوطان بالمجاز، لأنها مقرونة بالقدرة على حماية وضع اليد عليها. أما الوطن اليهودي فقد وضعت خارطته بإصبع الله ليكون وطناً لهم ما بقيت الأرض قائمة.

هكذا يقومون وجودهم ووجود غيرهم على هذا الكوكب.

ولتأكيد مقالتنا هذه. نقتطف بضع فقرات من التوراة كما يلي:

((أنا قلت لكم بأنكم آلهة وبنو العلي تدعون)) [مزمور ٨٢].

((وفي صهيون اختار الله أن يقيم إلى جوارهم واشتهاها مسكناً له)) [مزمور ١٣٢].

وقال لهم: ((يقف الأجانب يرعون غنمكم. ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم أما أنتم فتدعون كهنة الرب، تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمرون)) [إشعيا ٦١/٥-٦].

((هكذا قال الرب: هاأنذا أدير عليكم سلاما كنهر. ومجد الأمم كسيل جارف فترضعون وعلى الأيدي تحملون وعلى الركبين تدللون)) [إشعياء ٦/١٢- ١٣].

((لا تخف أنا خالقك يا يعقوب وجابلك يا إسرائيل دعوتك باسمي أنت لي، إذا اجتزت في المياه، فأنا معك. وفي الأنهار فلا تغمرك. إذا مشيت في النار فلا تلذع. واللهيب لا يحرقك لأنني مخلصك، جعلت مصر قديتك وسبأ عوضا عنك)) ((لا تخف فإني من المشرق آتي بنسلك ومن الغرب أجمعك أقول للشمال إعط وللجنوب لا تمنع إيت - بنيّ من بعيد وبناتي من أقصى الأرض). [إشعياء ٤٣/١- ٢- ٣- ٤].




آنَ للشعراءِ أنْ يترجَّلوا..

شعر الدكتورة: نائلة الإمام

من وحي آخر أمسية للشاعر الكبير محمود درويش في رام الله

أمسِ وأنتَ على منصَّة الخلودْ
في حُضرة الفنِ البهيّ
وعرائسُ الإلهامِ تخطُرْ
في شُفوفٍ وبرودْ
من نسجِ إبرتِك الصَناعْ
قد راعني الحسنُ
فقطَّعتُ يديّ
ونضوتُ أثوابَ القصائد
عنْ مشاجبِ عُجْبِها
ورُحْتَ أنكُثُ غزلَها
وأقولُ: أبدأُ منْ جديدْ

* * *

مَنْ ذا يحرِّرُها
من الآني والسطحيِّ
يُرجئُها إلى أَمد
فلا تُلقي بألواحِ الغضبْ؟!!
مَنْ ذا يُبلْورُ دمعها
ماساً لربّاتِ الفنونْ؟!
يُصمُّ أُذنيها عنِ الصرخات
عن قرعِ المحنْ
يُكنُّها في العمقِ
في أصدافِها
لتشعَّ لؤلؤةً
على هامِ الزمنْ
تسيرُ فوقَ الماء
تخطرُ في الضبابْ
في سرِّها الموحيْ
وتبخلُ بالجوابْ

* * *

في قلبها مرعى لغزلان
وأيكٌ للذئابْ
ديرٌ صفا للعابدينْ
كنيسُهمْ والمسجدُ
تُصغي لإيقاعِ الحياةْ
في رقصةِ الكونِ الكبيرْ
تتوحَّدُ
تخضعُ بالقولِ فلا
تُرغي ولا تتوعَّدْ







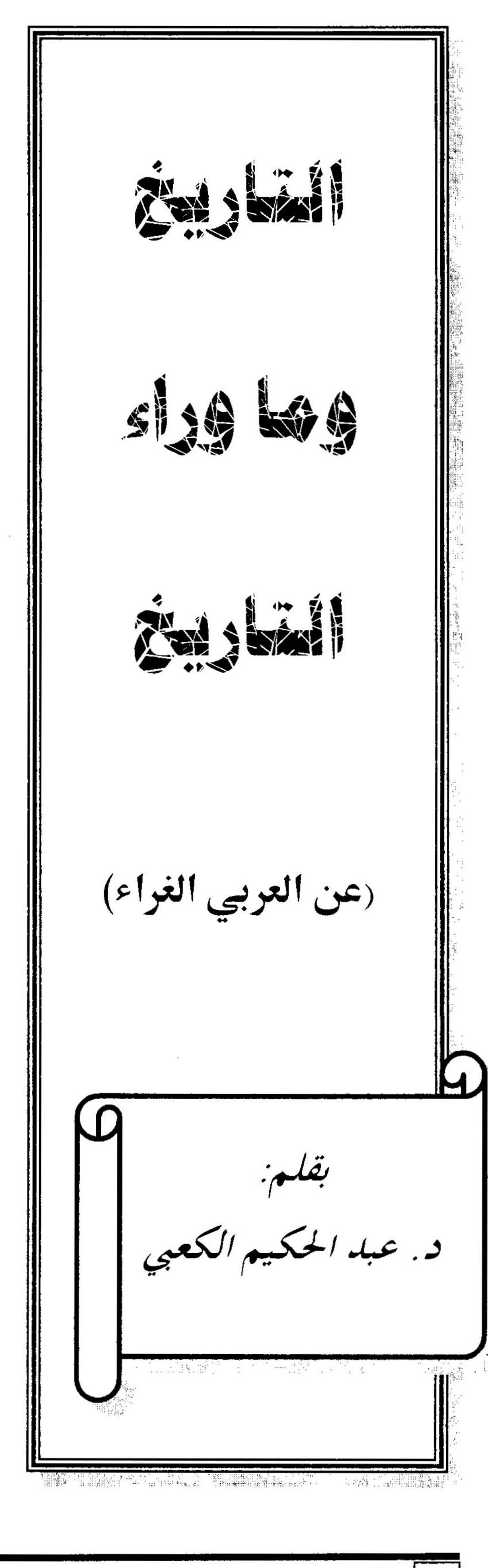
وتُديرُ خدَّيها لغاصبِها
وتحلمُ بالقبلْ
في ذاتِ يومٍ أنثويْ
تبني الحمائمُ عُشَّها
في خَوذةِ الجنديِّ
تزحفُ كرمةٌ
تتسلقُ الأسلاكَ شائكة
وتخترقُ الحصارْ
ويضوعُ سورُ الياسمين
يعانقُ الذئبُ الحمَلْ

*   *   *

قد آنَ للشعراءِ أنْ يتخلفوا
عنْ غزوهمْ
سيَّانَ إن ترشدُ غزيةُ
في الورى أمْ ضلت
إن قيلَ يوماً من فتى؟؟
وقوافلُ الشهداء
منْ يحدو لها؟!
يبكي على طَلل البيوتْ
لا تحسبُوا أنِّي عُنيتْ
ما كلُّ منْ قدْ قالَ شعراً
في هواها مُتيَّمُ
فلتذهبوا مع ربكمْ
فتقتُلوا أو تُقتلوا

إني أداوي قُبحكمْ
بعُشبةِ الفنِ ورُقيات الجمالْ
حطينُ تُزجي دُرّها للناظمينْ
لا ليسَ للنكساتِ غارْ
وابنُ الحسينْ
ينامُ ملءَ جفونه
بسيفِ دولته يقولُ
فيصمتُ الدهرْ
ويختصمُ الصغارْ
والأندلس
سئمتْ منابرها
وندبَ النادباتْ
لعين (ريتَّا) سحرُها
من قال زينبُ أجملُ
أو عندليبْ؟!!
قد آنَ للشعراءِ أنْ يترجّلوا
عن سرجِ سابحهمْ
وأنْ يتحمّلوا الروح
على راحاتهمْ
توقاً إلى مجدِ الأزلْ
للبيتِ ربٌّ يفتديه
وللمخيّمِ ربُّهُ
وللجياعِ بغزةَ قدرُ الحصى
تغلي على نارِ الوجودْ
ولهمْ رغيفٌ من غزل...



يقولون في المثل الشعبي (حب واحكي وأكره و واحكي) في إشارة إلى اثر هوى النفس ومزاجها في طريقة نقل خبر ما، أو حادثة معينة، فهل ينسحب هذا القول على المرويات التاريخية منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا؟

عندما استخدم المؤرخ اليوناني المعروف هيرودوت ٤٨٤/٤٢٥ ق.م. كلمة (هستوري) لأول مرة، وجعلها عنوانا لكتابه، أحدث هذا العنوان ثورة في مجال الكتابة والتأليف التاريخي، ذلك أن هذه الكلمة، مأخوذة من الأصل اليوناني (هستوريا) ومعناها (البحث والمشاهدة والتقصي). ويبدو أن هيرودوت استخدم هذا المصطلح، كرد فعل على من سبقه من المؤرخين الذين كانت كتاباتهم تقتصر على القصص، التي تسعى لمتعة الأذن على حساب الدقة والأمانة، ودعا إلى الكشف عن الحقيقة من بين تلك القصص، وما يتبع ذلك من معان ودروس. لذلك عد هيرودوت، منذ ذلك الوقت، إماماً للتأريخ أو (أباً التأريخ)، كما يوصف أحيانا، فالاهتمام بأحداث الماضي، وبمخلفات الإنسان وآثاره، نزعة إنسانية عرفتها الحضارات القديمة.

منهج التاريخ

يمكننا القول إن المنهج التاريخي بدأ على يد اليونان، ولو بصورته البسيطة، ولكنها كانت بدايات موفقة، ساهمت في تحرير العقل الإنساني من الخرافة، وصاروا يعللون الظواهر بأسباب منطقية معقولة، واعتقدوا أن التاريخ غير خاضع لأوامر تفوق الطبيعة، ويمكن للإنسان بذلك أن يتفحّص أحداثه،

ويناقش سر حدوثها دون اللجوء إلى الغيبيات، فعندما تنبأ طاليس الملطي بكسوف الشمس سنة ٥٨٥ ق.م، حفز اليونانيين نحو البحث والتفكير العلمي عندما بانت صحة هذا التنبؤ، وهاجم هكتيوس الملطي الأساطير اليونانية وعدها بمنزلة الخرافة، وذلك في حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وقد مهّدت هذه المقدمات وغيرها الطريق أمام هيرودوت، سواء من حيث المنهج أو من حيث سعة الاهتمام.

عرف عن هيرودوت خبرته الواسعة بطبائع الشعوب، نتيجة أسفاره الكثيرة، وكان يتمتع بروح علمية وحسّ فني، ساعده على عرض معلوماته بطريقة شائقة، وأسلوب أدبي سلس، وقد اهتم كثيراً بالتأكيد على دور الأشخاص في صنع التاريخ، متأثراً بالشاعر اليوناني (هوميروس)، الذي كان يمجّد البطولة في شعره، فيقول هيرودوت إنه يدوّن التاريخ (لكي لا تطمس أعمال الرجال، وتبقى المآثر الكبرى والانجازات الباهرة بلا تمجيد ولا إعجاب سواء تلك التي كانت لليونانيين أو للبرابرة).

ومن مؤرخي اليونان البارزين ثوسيديدس ٤٥٦/٣٩٦ ق.م، صاحب النظرية المشهورة عن دورة التاريخ، أي (أن التاريخ يعيد نفسه) وكان ثوسيديدس أكثر دقة وموضوعية وعلمية من هيرودوت، فقد فصل في تاريخه الأساطير والملاحم والقوى الميتافيزقية عن التاريخ، وقدم للتاريخ فائدة كبيرة عندما أكّد على روح النقد للروايات، ولكنه لم يستعمل كلمة History. ويحتل المؤرخ اليوناني بوليبوس ١٩٨/١١٧ ق.م، مكانة مهمة في المنهجية اليونانية، فقد كان يؤمن بأن التاريخ هو خير وسيلة لتعليم الفلسفة، من خلال دراسة العبر والتجارب، فالإنسان يتعلم من أخطاء غيره، وأعتقد أن تزويق الكلام وتنسيقه واعتماد الأساطير لا يخدم الهدف، الذي يدرس التاريخ من أجله، وطالب أن يكون التاريخ سليم النتائج، خالياً من الغش لكي يؤدي غرضه.

التاريخ عند العرب

لم يتفق على تحديد أصل لفظة تاريخ في اللغة العربية، وقيل في ذلك آراء واجتهادات متباينة. من جانب آخر، فإن كلمة تاريخ لها في اللغة العربية معان عدة، فهي تعني تحديد زمن الحادثة باليوم والشهر والسنة، كتاريخ الميلاد، وتاريخ الاستقلال، كما تعني سير الزمن والأحداث أي التطور التاريخي، كقولنا تاريخ الكويت وتاريخ فرنسا، ولها معنى ثالث، فهي تطلق على عملية التدوين التاريخي أو التأريخ، وتطلق كذلك على علم التاريخ والمعرفة به، وكتب التاريخ وما فيها، وأخيراً، فهي تعني تاريخ الرجال أو سير الرجال. إلا أن أكثر المعاني إشكالاً هو صعوبة الفصل بين التاريخ، بمعنى الزمن الماضي، والتاريخ بمعنى تدوين أحداث الماضي، فاقترح البعض حلاً لهذا الإشكال، بأن كلمة تاريخ (دون همزة)، هو الزمن الماضي، والتأريخ (بالهمزة) هو تدوين أو توريخ أحداث الماضي.

والعرب قبل الإسلام، كان لهم نتاجهم التاريخي أيضاً، وكل جماعة منهم كان لها – على طريقتها وبمقدار مستواها الحضاري – تاريخها الخاص، بعضه مدوّن وبعضه منقوش وبعضه شفهي، وهو تراث واسع من الأخبار والأحداث العديدة والمتفاوتة في الأهمية، وكذلك متفاوتة في درجة الصحة والصدق.

فعرب اليمن في الجنوب، كان لهم على مخلفاتهم الأثرية من معابد وقلاع وسدود، نقوشهم بالخط المسند، وكان لدى عرب الحيرة في العراق كتب تحوي أخبارهم وأنسابهم، أشار إليها الطبري وابن هشام، كما كانت لهم نقوش، حاول بعض المؤرخين قراءتها، أمثال ابن الكلبي لاستخلاص مادة تاريخية، منها، ولدى العرب في الشام سواء في تدمر أو البتراء نقوشهم التسجيلية المعروفة. وفيما عدا ذلك، لم يعرف عن العرب الغساسنة أي نشاط في مجال التسجيل أو التدوين التاريخي.

أما عرب الحجاز فلهم خصوصيتهم في هذا الميدان، فقد كان لهم تراثهم الثقافي والتاريخي ولكنه لم يكن مدوناً، بل كانت تتناقله الأجيال مشافهة، وقد تمثل في صورتين هما: الأنساب، وأيام العرب.

فالأنساب هي سلاسل أسماء دعت إليها الحاجة الاجتماعية للتعارف أو للتمايز، وحول هذه السلاسل النسبيّة كانت تنسج القصص التاريخية من بطولات ومواقف في الكرم أو الشجاعة أو الإباء. لقد مثلت الأنساب جوهر الفكرة التاريخية عند العرب، باعتبارها شكلاً من أشكال التعبير التاريخي، إلا أن تلك المعلومات النسبيَة قبل الإسلام بقيت شفهية لمدة طويلة حتى بعد ظهور الإسلام، لذلك أثير الكثير من الشكوك حول دقتها وصدق تسجيلها. أما الصورة الثانية فقد جسدتها قصص أيام العرب، وهي روايات جماعية، بدوية المنشأ، تحكي قصص النزاعات والحروب القبلية، وتضم ذكريات التاريخ البدوي بطريقة مسلية ومثيرة، ولكنها مقطوعة الصلة بالزمن، وعلى الرغم من أن هذه القصص ذات جذور تاريخية، فإن صلتها بالتأريخ بمعناه الحقيقي صلة بعيدة.

من دون شك فإن قصص ايام العرب تحمل الكثير من الحقائق التاريخية، ولكنه في الوقت نفسه جرى الكثير من التحوير والزيادة على أشكالها وصيغها الأولى – كما هو حال الأنساب – وذلك بسبب تناقلها شفاهة وتأخر تسجيلها بعد ظهور الإسلام لأكثر من قرن ونصف القرن من الزمان.

لقد أصاب هذه القصص، نتيجة لذلك، اضطراب تاريخي، فاختلطت الأحداث والأسماء بعضها مع بعض، حتى في أكثر الأحداث شهرة كيوم ذي قار – على سبيل المثال – فقد ذكرت أغلب المصادر أن النعمان بن المنذر (ملك الحيرة)، قبل أن يغدر به الملك الفارسي ويسجنه ثم يقتله، عندما دعاه لزيارته، كان قد استودع سلاحه وأولاده عند هاني بن مسعود الشيباني (زعيم بني شيبان) آنذاك، بينما يرى آخرون أن هاني بن مسعود هذا لم يدرك هذه المرحلة التاريخية، ونما حفيده (هاني بن قبيصة بن هاني بن مسعود) هو الذي كان زعيماً لبني شيبان في هذه الحقبة. من جانب

آخر تعرضت هذه القصص إلى انزلاق زمني، أي انتقال الحدث من زمن لآخر، فلا يوجد تاريخ محدد أو نهائي متفق عليه لأغلب أحداث تلك الحقبة، فضلاً عما انتهت إليه تلك القصص من تضخيم ومبالغة، فمع تباعد الزمن، وانتقالها شفاهاً من جيل إلى جيل، كبرت مع الأيام صورها وأحداثها، فصار البطل فيها خارقاً في بطولته وقدراته التي فاقت قدرات أقرانه من الناس العاديين، وأصبح العاشق هائماً على وجهه في البوادي والقفار، والحبيبة الجميلة غدت خارقة في جمالها، كأنها هبطت من كوكب آخر، وعن تأصل روح الكرم عند العربي آنذاك راح يذبح أبناءه لضيوفه بدلاً من ناقته.. وهكذا. كل ذلك من أجل أن تبدو هذه القصص أكثر إثارة ومتعة وأكثر شدا للسامعين.

الإسلام والتاريخ

على الرغم من أن كلمة تاريخ لم ترد لفظاً في القرآن الكريم، فإن الإسلام بطبيعته دين تاريخي الروح، يحمل في ذاته فكرة تاريخية عميقة، والعقيدة الإسلامية لا تعد نفسها جديدة، ولكنها عريقة الجذور في التاريخ، فهي عودة إلى الدين الأصل، إنها ﴿.. مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ.. ﴾ [الحج:٧٨].

وما الحنيفية واليهودية والمسيحية والإسلام إلا دين واحد متصل الحلقات. وقد قدم القرآن الكريم مادة تاريخية مهمة، وإن كانت مجملة أو عامة وتكتفي بالإشارة أو التلميح، تسمى أحسن القصص، وكان الهدف منها الموعظة والعبرة، إلا أن الرغبة لمعرفة تفاصيل ما أجمله القرآن من تلك القصص فتحت باباً من أبواب المعرفة الدينية دخل منها التأريخ كوسيلة شرعية لعمليات التفسير القرآني، وبذلك منح القرآن الكريم نظرة جديدة إلى الماضي عدت كأساس فكري للعقيدة الإسلامية. لذلك ليس بمستغرب أن تكون الأمة العربية بعد الإسلام من أكثر الأمم إنتاجاً للأدب التاريخي.

التدوين التاريخي

لقد أفاد التدوين التاريخي عند العرب المسلمين (في القرن الثاني للهجرة) من علوم الحديث، لذلك كانت منهجية، بعض المؤرخين الرواد لا تختلف عن منهجية رجال الحديث، فهذا محمد بن جرير الطبري (ت.٣١٠هـ) أشهر مؤرخي العرب اعتمد الأسانيد في رواياته لتوثيقها، كما توثق الأحاديث النبوية الشريفة. واعتمد هذا المنهج - بطريقة أو بأخرى - عدد غير قليل من المؤرخين الأوائل.

وفضلاً عن الأثر الواضح لكل من القرآن والسنة في تطور الكتابة التاريخية عند العرب المسلمين، دخل عنصر ثالث وسّع من دائرة الاهتمام بالتاريخ عندهم ومنحه أبعادا جديدة، ذلك هو ظهور الأحزاب السياسية والفرق والمدارس الفكرية، فقد درجت كل فرقة على توظيف التاريخ لمصلحة قناعتها ومنهجها الفكري، وسعت - بقدر ما تستطيع - إلى إعادة صياغة أحداثه من جديد، حتى

صرنا إزاء أكثر من قراءة التاريخ، خاصة فيما يتعلق بتاريخ العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام، وإذا علمنا أن التدوين التاريخي عند المسلمين لم يبدأ إلاّ بعد منتصف القرن الثاني للهجرة، وأن أحداث تلك الحقبة (قبل الإسلام وصدر الإسلام) قد جرى تناقلها شفاها على ألسن الناس والرواة عبر الأجيال لأكثر من قرن ونصف القرن من الزمن، حتى صار من الصعب إسنادها إلى مصدر فردي أو جماعي بعينه، فضلا عن غلبة الطابع الذوقي على صياغتها مما يضفي على أسلوب سردها موقفا وجدانيا عادة ما يكون منحازا، لذلك وقع الكثير من التأويل والحذف أو الإضافة في مجريات وتفاصيل بعض أحداثها، فتباينت الروايات تبعاً لتباين أهواء الرواة والمؤرخين وانتماءاتهم الحزبية والمذهبية، ومع تقادم الأيام والسنين وشيوع تلك المادة التاريخية المدونة وانتشارها في البلدان الإسلامية، اقتنعت كل فئة بما تحت يدها من نصوص ووقائع وأحداث، معتقدة بأنها هي وحدها التي تمسك بناصية التاريخ الصحيح والنهائي، ومتهمة سواها بالتمسك بتاريخ محرف أو مزور.

أوهام المؤرخين

لقد تنبه فلاسفة التاريخ منذ زمن بعيد، وفي مقدمتهم ابن خلدون في العالم الإسلامي، وفيكو في الغرب، إلى تلك الظواهر في تدوين التاريخ، فسماها ابن خلدون (مغالط المؤرخين) بينما أطلق عليها فيكو اسم (أوهام المؤرخين).

فيشير ابن خلدون إلى تحيز بعض المؤرخين في كتاباتهم التاريخية، إلى فئة دون أخرى لأسباب ذاتية أو حزبية ضيقة، قائلا: "إن النفس إذا كانت على حال الاعتدال أو الحياد في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر، حتى تتبين صدقه من كذبه. وإذا خامرها تشيع لرأي قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، دون تمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله".

وفضلا عن هذا الوهم الذي سماه (التشيع للآراء والمذاهب) شخّص ابن خلدون أوهاما أخرى وقع فيها المؤرخون بقصد أو دون قصد، كالثقة المطلقة بالناقلين (الرواة) والذهول عن المقاصد، ووهم المبالغة، وإخفاء الحقيقة، خوفاً أو تقرباً لذوي الجاه والسلطان وغير ذلك العديد من الأوهام.

إن إشكالية الصدق (الذي هو صنو الحقيقة) والكذب (الذي هو رديف التخيل) في التاريخ، قضية قديمة، قدم الوعي بصناعة التاريخ، وقد قدم لها العرب قديما حلولا أرضت - إلى حد ما - مؤسسة التاريخ عندهم آنذاك، وقد يطول الحديث كثيرا لو طرقنا هذا الباب بالأمثلة والشواهد، فهناك الآلاف من الروايات الموضوعة، والأحداث المفبركة لخدمة أغراض قد تكون قريبة، أو أهداف مرسومة على مدى بعيد، وقد تنطلي تلك الأحداث المصطنعة، أو الأوهام المدسوسة بين جملة من الحقائق، بيسر وسهولة على القارئ العادي غير المختص، فيصدّق بها، وربما يتحمس لها ويدافع عنها دون وعي بحقيقتها. ومن اللافت حقاً، أن نجد أن الأحداث المصطنعة والمفبركة، تكون أشدّ تأثيرا، وأقوى أثرا، في مشاعر الناس وعواطفهم، من حقائق التاريخ ومجريات أحداثه الفعلية.




السراب مرةً أخرى..

شعر الدكتور: عمر النص

لم ينْس البحر حكاياتي
فلماذا أخفضُ راياتي

أنا نارٌ تدفق أنهرُها
فلتنأ جميعَ الغابات

عيناك شراعان انفتحا
فأضاءا سَبْعَ سماوات

تتخايلُ حين أعانقُها
فترفُّ ألوفُ النجمات

يا لي منْ ريح قد عبَرت
فأزاحتْ كلَّ غياباتي

هذا ماضيَّ يهْمُّ بها
فيكاد يزلُ مرآتي

إن كُنت نسيت متى اعترفتَ
فأنا لم أنس جراحاتي







فلمــــــــاذا أتــــــــركُ دالـــــــيـة
تغـــــــزو بالطـــــيب مغازاتـــــــي

البحـــــر تـــــــراجع عـــــن قممـــــي
والنـــــــسرُ أضـــــــاعَ مناراتـــــــي

يـــــا شمـــــسا أســـــأل عـــــن غـــــدها
مـــــن قـــــال نـــــسيت نبوءاتـــــي

أأنــــــا أدعـــــوك إلـــــى جـــــزر
شــــــابتْ فـــــيهنّ خيالاتـــــي

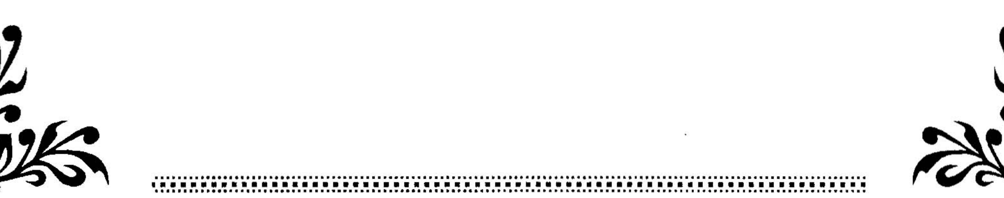
مالـــــي لـــــمْ أسْـــــق البحـــــر دمـــــي
وأهـــــبْ للـــــريح ضـــــراعاتي

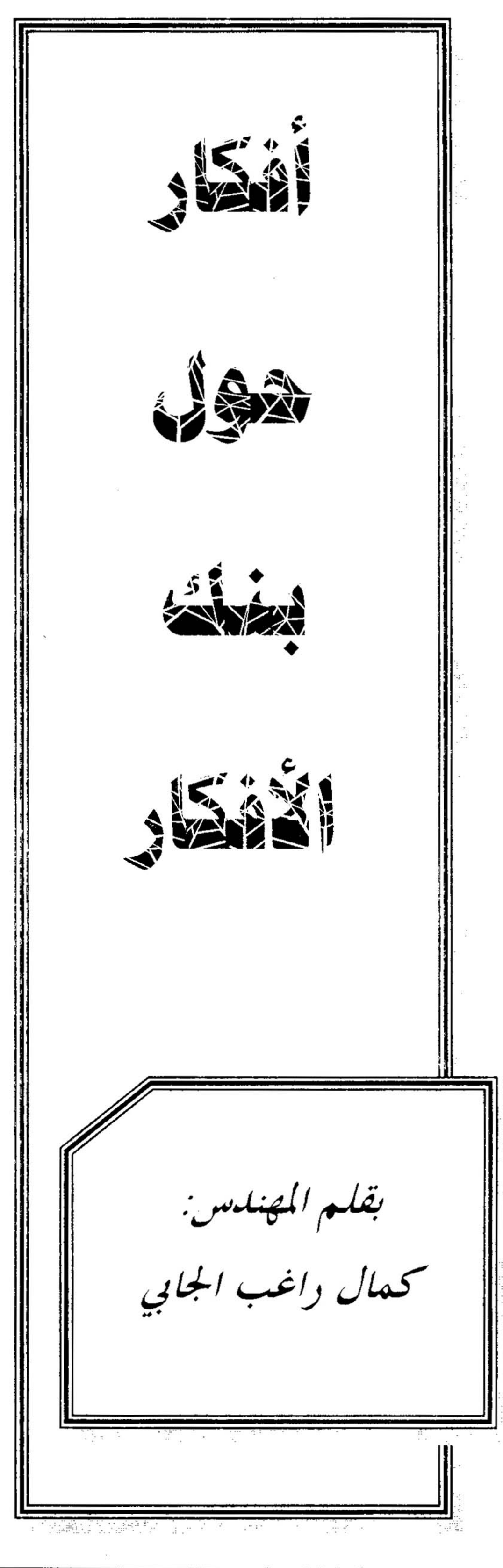
أأخـــــافُ علـــــى قمـــــر نـــــاء
لـــــم يعـــــشقْ غيـــــر متاهاتـــــي

كـــــم ســـــرتُ لأهـــــربَ مـــــن ظمئـــــي
فـــــرأيتُ أمامـــــي مأســـــاتي

لا أذكـــــرُ كـــــم ســـــنةً عبـــــرتْ
فليـــــنس البحـــــرُ حكاياتـــــي

أنـــــا ســـــيّدُ مملكـــــة دثـــــرت
فلمـــــاذا أنـــــشرُ راياتـــــي..



سررت أيما سرور لدى قراءتي الإعلان الصادر عن رئاسة مجلس الوزراء والمنشور في أعلى الصفحة الأولى من صحفنا اليومية خلال الأسبوع الثاني من شهر حزيران المنصرم، والذي تصدّره عنوان (سوريّة التشاركيّة) وتضمن دعوة المواطنين إلى طرح ما يرونه من أفكار تحت شعار (شارك في صنع القرار) وعن طريق موقع الكتروني افتتحه هذا المجلس برمز www.youropeniongov.sy وفرعه إلى شعب ثلاث هي (نوافذ مشاريع التشريعات المطروحة) و (محور نوادي الاختصاص) و (بنك الحلول والأفكار).

ولم يكن سروري ناجما فقط عن أن هذا الإعلان قد عكس ما يدور في رأسي ويخامر نفسي منذ أمد بعيد، وترجم روح الدعوة التي كنت قد وجهتها في العدد ١٢٥٩ من مجلة (فنون) الصادر بتاريخ ٣١/٥/ ٢٠٠٥، والتي جاءت تحت عنوان (حديث عن البرامج الفكرية) في زاوية (تلفزيونات) التي أستعرض فيها وفي الحلقات الأخرى التي تتابع تلك المجلة مشكورة نشرها في أعدادها المتتالية، أبرز ملامح البرامج التلفزيونية المحلية التي أتيحت لي مشاهدتها خلال زيارتي الأخيرة إلى الولايات المتحدة. وبعد أن حاولت أن أستخلص منها ما يكون مفيدا لنا، ومعينا على تخطي الصعاب التي تواجهنا والمشاكل التي تقابلنا، والتي يأتي في مقدمتها في تصوري ضرورة إحلال الرؤى الجمعية مكان الرؤى الفردية، وأهمية طرح الأفكار التي توسع من ساحة الرؤية عند متخذ القرار. حيث أوردت في نهاية تلك الحلقة تمنيا بإقامة مركز لتجميع الأفكار الحديثة يتلقى آراء مشاهدي البرامج التلفزيونية الحوارية التي أقترحت إلقاء سلسلة من المحاضرات بشأنها تركز كل منها على إحدى مشاكلنا الحادة أو المزمنة أو المستعصية، وإجراء حوارات مستفيضة حولها. وبحيث يتلقى هذا المركز آراء المشاهدين وأفكارهم برسائل الكترونية أو

فاكسية أو عاديّة ويقوم المختصون فيه بدراستها واستخلاص المفيد منها وعرضه على السلطة التشريعية وعلى جميع الجهات التي تتعامل مع صنع القرار للاستفادة منها في هذا المجال..

لم يكن ذلك السرور نابعاً، كما ذكرت، من هذا الأمر فقط. وإنما الذي أثلج صدري وأراح نفسي أنه بدا لي بأننا جادون في سلوك الطريق الموصل إلى التطور والمؤدي إلى التقدم. كما لاح أمام ناظري بأننا مدركون بأن التشاركيَة هي الشكل الجمعي للمواطنة الذي ينأى بالوطن عن اتباع الأساليب الضائقة والشائكة ويجنبه المآسي والمحن..

ومن هذا المنطلق آمل أن ينظر إلى *الشق الثاني من الدعوة الواردة في تلك الحلقة* بعين الاعتبار، والمتعلق بالابتداء بإقامة نواة هذا المركز بافتتاح (دوائر للأفكار الحديثة) في المراكز الثقافية المنتشرة في طول البلاد وعرضها بعد تزويدها بالعدد الكافي والكفؤ من المثقفين والمتنوّرين تكون مهمتهم حصر الأفكار المفيدة التي تطرح في المحاضرات والندوات والمؤتمرات التي تعقد فيها، والحوارات التي تدور حولها، وتلقي الأفكار الأخرى التي ترد بشأنها ممن يشاء من المتبعين بشكل خطي وتبويبها واستخلاص المفيد منها ثم رفعها إلى الجهات ذات العلاقة للاستفادة منها..

وهذا الإجراء سيعمل في تقديري على تحويل هذه المراكز من مراكز شكلية إلى مراكز فعلية، ومن مراكز ثقافية إلى مراكز حضارية الأمر الذي يدفعني إلى رجاء إدراج هذا الاقتراح في الفرع المتعلق بـ (بنك الحلول والأفكار) وآمل التعامل معه كاقتراح إجرائي لإعداد الهيكل الخاص بهذا الفرع.

وأما الناحية الهامة في هذا المجال، وفي جميع مجالات مسيرتنا التطوريّة المأمولة فهي ضرورة التعامل مع الأفكار التي سترد إلى هذا الموقع بجدية وفعاليةز وأن لا يجري اعتبار افتتاح هذا الموقع هو الإنجاز المستهدف بحد ذاته على عادتنا بالقيام بحل مشاكلنا عن طريق افتتاح مؤسسة أو منشأة أو هيأة أو شركة، وآمل أن لا يكون موقعاً الكترونياً هذه المرة، دون أن نهيئ للاستفادة منها الأجهزة القديرة والقادرة على حسن استثمارها وتحقيق الأهداف التي دفعت إلى إقامتها، ودون أن نضع نصب أعيننا بأن لا يكون للمحسوبية أو لا أية معايير أخرى دور في اختيار هذه الأجهزة، ودون أن نعمد مخلصين إلى حسن مراقبة مدى قيام أفرادها بالمهام التي توكل إليهم فيها. وإلى محاسبتهم في حال تقصيرهم مهما كانت انتماءاتهم وارتباطاتهم.. والناحية الأهم في هذا المجال وفي جميع مجالات هذه المسيرة هي الاستفادة *الفعلية من الأفكار التي سيجري طرحها بعد* دراستها بدقة، وتقليبها على جميع جوانبها، وإجراء حوارات مثمرة حولها، لاستخلاص ما يمكن استخلاصه منها بحنكة وموضوعية..

وقد نكون بحاجة إلى التأكيد في هذا السياق بأن تسليط أنوار الأفكار الكشافة على مسائل الحياة ومشاكلها وعلى تصرفات القائمين بها والمسببين لها هو الذي يؤدي إلى نزع الأحجبة وكشف الأغطية عن خفايا الأمور وخباياها. وهو الوسيلة الأنجح لتحسين أوضاع المجتمع والتخفيف من أوجاعه. لأن الفكر هو العامل الحاسم في حسر الأخطاء التي تعرضنا لها، والنصر على الأخطار التي تتربص بنا. وأن الإيجابي النافع منه بشكل خاص ينبغي أن يكون منارنا خلال مسارنا في قادم أيامنا لأنه وحده العامل القادر على مقاربة الحقيقة وملامسة أبعادها..

كما أنه من نافلة القول أن نشير إلى أن القراءة هي المصدر الرئيسي لتلقي المعارف وتحويلها إلى أفكار مفيدة. وأن نلفت النظر إلى أن من لا يقرأ يصعب عليه أن يستقرئ ويتعذر عليه أن يستدل ويستنتج. وأن نوضح بأن إعطاء كلمة (إقرأ) الأولوية على باقي كلمات وحي السماء ولم يكن إلا لإبراز أهمية هذه الفعالية الرائدة، التي هي ليست مطلوبة

لـذاتها، بل لكي تثير عند من يقوم بها القدرة علـى توليـد الأفكـار لتحسين الحياة وتجميل مسيرتها. وكل من لا تتولد عنده مثل هذه الأفكار عند القراءة، أو عند الرؤية والسمع، واللـذين هما شكل من أشكال القراءة، ومن لا يحاول عن طريقها جميعاً الكشف عن ما يحيط بـه مـن ألغاز وأسرار، فإنه يقرأ أو يرى أو يسمع بقلوب المرضى، وعيون الموتى، وآذان من يعيش على هامش الحياة غير آبه لإيقاعها أو عابئ بأوجاعها..

ولـسنا بحاجة إلى كثير من الجهد في هـذا السياق لكي ندرك أن العلم هو أداة الفكر وأن القـراءة هـي وسيلة العلم وعدته، وأن العقـل هـو مفتاح العلم. وأنها، أي القراءة، المـساهم اكبر في تكوين العقل وتلوينه. وأن الاسـتمرار فـي طلب العلم يقود إلى استمرار حفـز العقـل وشحذه لطرح الأفكار التي تؤدي إلـى حسن القيام بالأعمال وتأديتها على أكمل وجـه. لـذلك فإن الحديث الشريف الذي يدعو إلى إتقان العمل هو في واقع الأمر ليس دعوة للقـراءة فقط وإنما طلب على استمرار التزود بالعلم أيضاً..

وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر بأن دول العـالم المـتقدمة تقوم بجمع الأفكار التي تطـرح في جميع المجالات وتصنيفها وتبويبها ثـم حفظهـا فـي ما يطلق عليه اسم (خزان الأفكـار) للاسـتفادة مـنها كلما دعت الحاجة إليها. وأن عملية (عصف الأفكار) أي تحفيزها لإثـارة أفكار جديدة، هي الأسلوب الذي تتبعه طـرائق التعليم الحديثة لخلق أجيال يستهويها التفكيـر ويستحثها على طلب المزيد من العلم باستمرار..

وإذا كانـت الملاحظـة تقـود إلى أن المـتعة والمنفعة هما الهدف الأهم الذي تطلق نحـوه الأفكـار وتصوب عليه نيرانها من قبل أغلب أفراد البشر الذين يمكن أن نطلق عليهم اسـم (أصحاب الذهن) باعتبار أن اهتماماتهم تتركـز علـى البحث عن أفضل الوسائل لتلبية المتطلـبات الحياتـية أو علـى الاسـتمتاع بالمنـتجات الاسـتهلاكية وأدوات التـرف والـرفاه.. فإن القضايا المتعلقة بتخفيف الألم، وتطويـر العمـل، وفتح أبواب الأمل وتحجيم الجهالـة، وتفعـيل العدالـة، وإلغاء البطالة، ووضـع أفـضل الحلـول للوصول إلى الهدف المأمول بالعمل المثمر وليس بالكلام المعسول وغيـرها مـن الأمـور الحياتـية هي موضع الاهـتمام لقلة من أفراد البشر الذين يمكن أن نطلـق علـيهم (أصـحاب الفكـر) باعتبارهم يخـضعون أعمـالهم الذهنـية للتحليل وإعادة التـركيب بشكل منظم. ولأنهم لا يركزون على أمـورهم المعاشية فقط وإنما يتجاوزونها إلى أمـور المجتمع الحياتية أيضا جاعلين ديدنهم تقـديم الأفكـار النبـيلة، والحـث على اتباع الفـضيلة، والتمسك بالمثل الجليلة لاستنهاض مجتمعاتهم والنهوض بها..

وهذه الفئة الأخيرة يتشكل معظمها من المثقفـين الواعـين الـذين يرفـضون تحويل شـهاداتهم العلمية إلى إعلانات في الصالونات وخبـراتهم الحياتية إلى ألبومات يرجعون إليها فـي المناسـبات. ويعارضون محاولات تحنيط أفكـارهم أو اسـتثمارها لـصالح فـئة مـن المستأثرين تتكالب على جني المكاسب وتجبير المـصائب. وتـتهافت علـى إغراق الأسواق بالسلع الاستهلاكية المستوردة دون فرز غثها عـن سـمينها. ودون التمييز بين ما يلائم قيم المواطنـين وذائقـتهم ويـوائم احتـياجاتهم وإمكانـياتهم ودون محاولة محاكاة الفكر الذي أنـتج هـذه الـسلع والاستفادة من إيجابياته، وتجنب سلبياته..

وينسحب ذلك بشكل أو آخر على الكم الكبيـر والكـيف الأكبـر من الأفكار العقائدية والاقتـصادية، والاجتماعية، والإبداعية، التي جـرى ويجـري إنـتاجها وإطلاقها في أنحاء المعمـورة كما جرى ويجري تلقفها واعتناقها مـن قـبل بعـض البـشر فيها وفي أنحائها الأخـرى. إذ يمكن وبسهولة تمييز نوعين من العقـول بين جنبات المجتمعات البشرية. أولها وأكثـرها انتشاراً هو (العقول الانفعالية) وهي

سريعة التأثر، كثيرة الاستجابة، شديدة الخضوع للميول، قوية التعلق بالتوجهات والخطابات الخاصة بها دون التعمق في مرجعياتها والتفكر في حيثياتها وهي لذلك متينة الارتباط بأصحاب الذهن الذين ينصب اهتماماتهم على ذواتهم دون أن يتعداها إلى متطلبات الآخرين وثانيها وأقلها حضوراً هو (العقول الفاعلة) وهي عقول ناقدة تهتم بالجوهر أكثر من اهتمامها بالشكل والمظهر، وقادرة على التجاوز في حال عدم إمكان التكيف، ومجبولة على العطاء المستمر للتغلب على حالات العجز النفسية والعضوية والاجتماعية ومشغولة بممارسة التفكير في الأمور التي تهم الآخرين بشكل لا يهدأ ولا يستكين.. وبمقدار تزايد هذا النوع الأخير من العقول وترافده وتلاقح الأفكار الناجمة عنها وتكاثرها بمقدار ما تمهد للمجتمعات التي تنتشر فيها الطرق لحاضر مشرق ومستقبل زاهر..

وغني عن البيان أن الأوضاع التي نمر فيها حاليا تدفع لأن تكون ظاهرة الفقر هي الشغل الشاغل للفئة الأخيرة من العقول ولأن تصبح الميدان الأوسع والمجال الأرحب الذي تطلق الأفكار باتجاهه وتصوب عليه بهدف إلغائه بشكل مماثل أو أفضل مما قامت به الدول المتقدمة في مجتمعاتها الخاصة. وأنه يقع على جميع أصحاب الإيمان الحقيقي والوجدان الحي، والمشاعر النبيلة الإسهام ليس بالأفكار الفاعلة فقط بل بالرؤى الواضحة لوضع هذه الأفكار موضع التنفيذ. وعليهم أيضاً العمل على تغيير الاعتقاد السائد بأن القدر هو السبب في الفقر، وأنه لا جدوى من إدعاء القدرة على إلغائه عن طريق الفكر واستبداله بالوقائع التاريخية الصارخة التي تشير إلى أن القهر هو السبب الرئيسي للفقر كما أنه السبب الأرأس لإخماد الفكر وإخفات صوته في الماضي البعيد والقريب.. إذ أنه من الأمور الواضحة والتي لا يمكن إخفاؤها أن معظم أفراد مجتمعاتنا عانوا في ماضي أيامهم ولا يزالون يعانون في حاضرها من تقلصات في الجهاز الهضمي نتيجة لصراخ معدهم، ومن تشنجات في الجهاز العصبي بسبب إخماد فكرهم، ومن تنازعات في الجهاز العاطفي والجنسي كرد فعل على عدم تمكنهم من تلبيتهما بشكل سليم.. وبحيث يبدو للمتأمل في أوضاع هذه المجتمعات بأنه لا يمكن فيها تحرير الفكر من انكماشاته التي تحد من تطلعاته إلاّ بعد تحرير المعد من تقلصاتها المطالبة باحتياجاتها، وتحرير الأجساد التي تضمها من عوزها التاريخي إلى الحب والجنس. فالجوع إلى الطعام، وإلى الحرية وما ينبثق عنهما من جوع إلى الجنس، وإلى الحب هو صداعنا التاريخي والخضوع إلى القهر هو سبب هذا الصراع المستمر..

وتأسيساً على ما سبق فإن إطلاق الأفكار السديدة لوضع أحكام العقيدة الرشيدة موضع التنفيذ الحقيقي في المجالات الحياتية المختلفة ميدان آخر ينبغي أن نجعله هدفاً لهذه الأفكار. فالتطوير لا يمكن حصوله إلاّ عند استخدام العقل البشري بجرأة وفي مختلف الاتجاهات. والتحرير لا يمكن حصوله إلا عند توضيح الأسس التي ترتكز عليها المجتمعات السوية وعلى مختلف المستويات..

فعلى سبيل المثال لو وجد في الماضي البعيد عدد كاف ممن حاول استخدام فكره بشكل فعال لتحليل المعنى بكلمة (الوسطية) واستنباط القصد من إيرادها في الكتاب الكريم ووصف أمة الإسلام بها. وهو وصف لم يطلقه هذا الكتاب الحكيم على غيرها من الأمم.. ولو وجد من قام بالاستنتاج بأن الهدف الرئيسي من نعت المسلمين بأمة الوسط الدعوة إلى سيادة الطبقة الوسطى في المجتمع الإسلامي كما هو واضح من استقراء مضمونها واستقصاء أبعاده، ومن الحث على عدم الإفراط والتفريط، وعدم الإسراف والتقتير في الآيات الأخرى.. ولو وجد من وجه هذا الفهم لدعم آية تحريم الكنز الواردة في سورة التوبة. وآية وجوب إنفاق الفائض عن الحاجة

أو (العفو) الواردة في سورة البقرة.. لو وجد أمثال هؤلاء المفكرين وبكثرة على مدار تاريخنا. ولو لم يوجد من قام بقمع أفكارهم وبقوة للحفاظ على مكتسباته واستئثاراته ولإحلال شعار دولة من الأغنياء تتمثل بفئة من الأفراد محل شعار (أمة الوسط) الذي نادى به القرآن الكريم.. لكان قد كتب النجاح للحركات الثورية ذوات المضمون الاجتماعي والطابع الأخلاقي والتي كانت تركز على وجوب المشاركة المجتمعية الفعلية وضرورة تفعيل مبدأ العدالة الاجتماعية وتحويل الشعارات إلى ممارسات..

واستطراداً، لو وجد في الحاضر من حاول استخدام فكره في تحليل هذه الكلمة بعد القيام بملاحظة عابرة لجميع المجتمعات المتقدمة التي بنت تقدمها أساساً، وبدون استثناء، على مبدأ سيادة الطبقة الوسطى في مجتمعاتها بعد أن اقتبست مبدأ (الوسطية) من عقيدتنا السمحة وقامت بتفعيله من قبل مفكريها في جو من الحرية تمكن هؤلاء المفكرون من فرض هيمنته بنضالهم المستمر وكفاحهم الدائب.. حيث تبين هذه الملاحظة وبوضوح بأنه لا يكاد يوجد دولة متقدمة في العالم تقل نسبة الطبقة الوسطى وفوق الوسطى فيها عن ٨٠% وتزيد الطبقة الغنية والفقيرة معا عن ٢٠% من سكانها. كما تبين بمزيد من الوضوح بأنه يمكن اعتبار الوسطية الاقتصادية هي المقياس الأصدق والمعيار الأوثق لتقدم هذه الدول وتطورها.. لو وجد من استخدم تفكيره بجرأة بهذا الاتجاه في حاضر أيامنا أو في ماضيها ومن حاول ربطه بإجراءات عقائدية واضحة بالشكل نفسه الذي تم فيه ربط العبادات بمثل هذه الإجراءات. ولو وجد من أصاغ السمع من المسؤولين بكثرة إلى آراء القلة المحدودة من المفكرين التي نحت هذا المنحى وسعت هذا المسعى لما كنا بحاجة إلى من يأتي من الخارج، ومن وسط أوروبا، أو من شرقها أو من أقصى القارة الجديدة ليعمد إلى تعليمنا أسلوبه في العدالة، وطريقته في الاشتراكية والتي تظهر كثير من ممارساتنا وكأننا نرفض محاولات استقبال بضاعتنا لدى ردها إلينا..

وهل لنا إثر هذا المثال الذي نكتفي بإيراده لضيق المجال والذي ينسحب على كثير من تعاليمنا النبيلة التي تعج بالفضيلة كالشورى بمعنى إشراك الناس جميعاً في أمور حياتهم. وكتحريم الربا بمعنى منع تقاضي زيادات فاحشة في الأسعار ليس عند التداين بل عند التبايع أيضاً، والذي هو إجراء يومي حياتي، لأن كلمة الربا تعني الزيادة بمختلف صورها وليست الزيادة المتعلقة بما أطلق عليه اسم (الفائدة) فقط. وكتحديد المعني فعلا بالحلال والحرام بما يناسب كل زمان ومكان وبمفاهيم واضحة غير عائمة أو غائمة ولا تحتمل اللبس وازدواجية الفهم.. وغير ذلك من التعاليم الكفيلة بإنارة المسالك والدروب والتي اكتفى معظم من تصدى لمعالجتها على مدار تاريخنا بالاختلاف وليس بالائتلاف حولها وبالأقوال وليس بالأفعال بشأنها.. هل لنا بعد هذا أن نتخيل مدى تقصير مفكرينا في ماضي أيامنا وفي حاضرها.. ومقدار تأثير متنفذينا في قمع تقديم الأفكار المؤدية إلى النهوض بمجتمعاتنا وإصلاح شأنها. مما جعل هذه المجتمعات تتسم (بفقر الفكر) الذي لم يؤد إلى الفقر فقط، بل إلى ظهور ثقافة خاصة بها يمكن أن نطلق عليها اسم (فكر الفقر) أو فكر العجز عن تقديم الأفكار المفيدة، والاستعاضة عنها بالأفكار المسكنة كأفكار الإرجاء، وغض البصر عن الأخطاء، والتمسح بأذيال الأوصياء والأولياء.. وما لم نضرب صفحا عن هذا كله، ونسعى حثيثا إلى الأفكار المتعلقة بالتوسط عند تعاملنا مع الأموال، والتعقل عند تعاملنا مع الأشياء، والتحرر عند تعاملنا مع الأشخاص، والتنور عند تعاملنا مع الآراء، فلا مكان لنا في عالم الأقوياء...

أدب الأطفال المترجم إلى اللغة العربية في سورية

بقلم:
أ. عيسى فتوح

لا بد من كلمة تمهيدية في مستهل هذا البحث، نبيّن فيها أهمية الترجمة والدور الذي تلعبه في حياة الشعوب، ولا سيما بالنسبة لنا نحن العرب، فالترجمة – كما هو معروف – هي النافذة الواسعة التي تطل منها الأمم والشعوب على ثقافات بعضها البعض.

لقد اهتم العرب بالترجمة قديما، وتحديدا منذ العصر العباسي الأول، وكان الخليفة المأمون في طليعة المشجعين عليها، إذ نقلوا عيون التراث الفكري عند اليونان والفرس والهنود، وبخاصة العلوم والفلسفة والرياضيات والمنطق وغيرها، لكنهم عزفوا عن ترجمة الأدب والشعر لغنى التراث العربي بهما، ولاعتقادهم أن لهم في آدابهم غنى عن آداب غيرهم من الشعوب، فالأمة العربية هي أمة شعر بالدرجة الأولى، ينظمه شعراؤها بالفطرة والسليقة دون تكلف أو بذل للمزيد من الجهد.. ولا تزال مكتبتنا العربية تغص بالآلاف المؤلفة من الدواوين الشعرية منذ العصر الجاهلي حتى اليوم، ومهما نسينا فلا يمكن أن ننسى التراجمة الأفذاذ من السريان والصابئة أمثال يوحنا بن ماسويه، وآل يختيشوع وثابت بن قره وغيرهم.. ويروى عن الخليفة المأمون أنه كان يدفع مقابل كل كتاب ينقل إلى العربية وزنه ذهبا.

لقد أصبحت الترجمة في عصرنا الذي تراكمت فيه المعلومات، واختلطت الشعوب ببعضها، ضرورية جداً، وبخاصة لمن لا يتقن لغة أجنبية، فهل بإمكان الإنسان المثقف إتقان جميع لغات العالم لينفذ منها إلى آدابها وثقافاتها؟

قد تفقد الترجمة الكثير من مقومات النص المترجم، وبخاصة الشعر، فالمترجم مهما كان بارعا وقديرا ومتمكنا من اللغتين المنقول منها والمنقول إليها، لا يستطيع أن ينقل الصور والموسيقا والإيقاعات التي تعد من أهم عناصر الشعر، لكن هذا لا يجوز أن يمنعنا من ترجمة القصص والروايات والمقالات والكتب العلمية والفكرية والفلسفية والسياسية..

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل يُشترط بالمترجم أن ينقل عن اللغة الأصلية مباشرة، أو يمكنه اللجوء إلى لغة وسيطة كالإنكليزية والفرنسية باعتبارهما أكثر اللغات العالمية شيوعاً وتداولاً وانتشاراً؟

أقول من الأفضل أن تتم عملية الترجمة عن اللغة الأصلية مباشرة، ولكن إذا كانت هذه اللغة قليلة الانتشار أو الشيوع كالصينية أو اليابانية أو الهندية أو الفيتنامية، فيمكن الاعتماد على لغة وسيطة، وأعترف أنني اضطررت في ترجماتي لكتب الأطفال المكتوبة بالصينية والرومانية والبلغارية والهندية إلى استخدام لغة وسيطة هي الإنكليزية، لأنها اللغة الثانية التي أتقنها، وأستطيع الإطلال منها على آداب الشعوب وثقافات العالم.

والسؤال الآخر: ما هي الشروط التي يجب توافرها في المترجم الكفء، بغض النظر عن اللغة التي يترجم عنها؟ وفي الجواب نقول: إن أول هذه الشروط إتقان اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها بالدرجة الأولى إتقاناً جيداً، وعلى حد سواء، فكثيراً ما يسيء المترجم غير الكفء إلى النص إذا كان يجهل أسرار اللغة التي ينقل عنها، ويؤدي به ذلك إلى الغموض وسوء الفهم، وتحكى قصص ونوادر مضحكة عن أخطاء المترجمين غير الأكفياء، والمزالق الخطرة التي وقعوا فيها، لا مجال لذكرها الآن.

والسؤال الأخير: هل الترجمة خيانة كما يدعي بعض الغلاة؟ وهل هي عمل إبداعي يرقى إلى مستوى التأليف أو أنها أدنى درجة منه؟ وأين يجب أن نصنف المترجم، وفي أي خانة نضعه؟ وهل المترجم أقل شأناً من المؤلف لأنه مجرد ناقل للأفكار والألفاظ والعبارات؟ وفي الجواب على هذه الأسئلة كلها نقول: إن الترجمة عمل إبداعي، والمترجم يساوي المؤلف تماماً.

* * *

كانت سورية في طليعة الدول السبّاقة إلى ترجمة أدب الأطفال إلى اللغة العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين، وقد اضطلع بها شاعران صارا في أيامنا شبه منسيين هما: رزق الله حسون الحلبي (١٨٢٥- ١٨٨٠) والياس قدسي الدمشقي (١٨٥٠- ١٩٢٦) الذي كان أحد مؤسسي المجمع العلمي العربي بدمشق وقنصل البرتغال فيها.

لقد ناهض رزق الله حسون سياسة السلطان عبد الحميد في جريدته (مرآة الأحوال) فلاحقه جواسيسه، وضيّقوا عليه الخناق، فهرب إلى روسيا عبْر بلاد القفقاس، ودرس هناك اللغة الروسية حتى أتقنها، وترجم عنها إحدى وأربعين قصة شعرية للشاعر الروسي (كريلوف) نشرها في ديوانه (النفثات) الصادر في لندن عام ١٨٦٧، وقد قسمه قسمين، أفرد القسم الأول منه لقصص كريلوف التي وضعها على طريقة بيدبا الفيلسوف الهندي في (كليلة ودمنة) ولافونتين الفرنسي، واحتلت تسعا وستين صفحة من الديوان، وكانت غايته من ترجمتها الإشارة إلى فساد الحكم في العهد العثماني، وصلف الحكام وقسوتهم وجورهم، وافتقارهم إلى العدل والرحمة والرأفة بالضعفاء، وإلى حكم الأغبياء بدلاً من الأذكياء.. كما في حكايات (النسر والعنكبوت) و (البلبل والحمار) و (الذبابة والنحلة) و (قرد ونظارة) و (مرآة وقرد) وغيرها..

يقول في حكاية (مرآة وقرد):

حكى لنا الراوون عن
قرد ودب في سمرْ
في صفحة المرآة قر
دٌ مذ تراءى وانبهرْ
وأعجبته نفسهُ
وهيئةٌ فيها اشتهرْ

دبَ علـــى الـــدب يـــدا

هـــزّ بـــه ثـــم انتهـــرْ

وقـــال مـــا أشـــنأ ذا

الممـــسوخَ مـــن بـــين الـــصورْ

لـــو حـــلّ بعـــضُ قـــبحه

بـــي فـــاض قلبـــي وانفطـــرْ

أقـــبحْ بـــه ذا ســـحنةٍ

شـــوهاء ســـوداء الوبـــر

ونـــــوعُهُ جمـــــيعُهْ

أبـــشعْ خلْـــقٍ فـــي النظـــرْ

أجابـــه الـــدبّ علـــى

تعبيـــره بمـــا ذكـــرْ

أيـــا أخـــي القـــرد الـــتفتْ

وارجـــعْ لمـــرآك البـــصرْ

تجـــدْ علـــى نفـــسك مـــا

أنكـــرتَ منـــي فالحـــذرْ

الخلْـــق لا يـــرون مـــا

فـــي ذاتهـــم مـــن العـــورْ

مـــسألةٌ مـــبحوثةٌ

بـــالأمس عـــنها ذو عبَـــرْ

إن الرُشـــى يأكلُهـــا

بكـــرٌ ويُحكـــى عـــن عمـــرْ

* * *

أمـــا الـــياس قدسي الذي نشر ديوانه الـــصغير بعنوان (نوادر وفكاهات من أحاديث الحيوانات) عام ١٩١٣، فقد أشار في مقدمته إلى هدفه من نظمه بالعامية الدمشقية قائلا:

"إنـــه مـــنذ القـــديم فـــي أيام الحكام الظالمـــين والعظمـــاء المستبدين، حين كانَ لا يجسر أحد أن ينتقد أفعالهم، كان يجتهد حكماء القـــوم أن يُـــسمعوا أولـــئك الظالمين شكوى المظلـــوم، بابـــتداعهم أحاديث وقصصا ملفقة كأنهـــا جـــرت بـــين الحـــيوانات غير الناطقة، يـــضمنونها النصائح الجدية تحت طي الهزل، وتوســـعوا بهـــذا الأسلوب حتى أصبح كالتعليم لكـــل فـــرد مـــن أفراد الناس، فيبعدونهم عن الـــشرور، ويكـــسبونهم الفضائل، كحب العمل والابـــتعاد عـــن الكـــسل، والإقلاع عن التملّق والكـــذب.. فظهـــر عـــند الهـــنود كتاب (كليلة ودمـــنة) وعـــند العـــرب ما ورد في الإبشيهي ولقمـــان والشريشي والقليوبي، وعند اليونان إيـــزوب، وعـــند الـــرومان هوراس وجوفنال، وعـــند الفرنسيين فلوريان ولافونتين الذي فاق جميع من تقدموه برشاقة شعره، ورقة معانيه، وبداهته وابتكاراته".

ويـــؤكد أن جمـــال قـــصص لافونتين وأحاديث حيواناته حمل أهل الأقلام على نقلها إلى لغات قومهم، ولا أخالهم من نجحوا نجاحا باهـــرا لـــصعوبة الترجمة من لغة إلى أخرى، ولتقيدهم بعبارات المؤلف، ومن هؤلاء الشاعر رزق الله حـــسون الذي فضلا عن التزامه هذا الـــتكلف عـــرّب نخـــبة من تلك القصص بلغة ســـامية، وفاته أن لافونتين كتب بلغة الشعب، واســـتعمل ألفاظا مختصة باللغة العامية ولذلك جاءت أبيات حسون غير وافية بالمقصود، ولا موشّاة بجمال ودقة المعنى الفرنسي.

ويعتـــرف الـــياس قدســـي بأنه نظرا لإعجابـــه بـــنوادر لافونتـــين وملحه، وركاكة أسلوبه باللغـــة الفـــصحى، وتمكنه من اللغة الدمـــشقية المحكـــية، فقد آثر نقلها بلغة عامة دمـــشق الدارجـــة علـــى ألسن أهلها، وجعلها مـــوزونة علـــى الـــوزن القـــرادي المعروف بالمعنى، كقوله في قصيدة (الجيز والنملة):

غنـــى الجيـــز طـــوال الـــصيف

إجـــا وقـــت الكانـــونه

ما التقى عند يا حيف
ولا حتحوته للمونه
لا قمحه ولا زيوانه
ولا دوده ولا دبانه
قال النملة غنيهْ
وخزاينها مليانهْ
أسرعْ لعند النمله
يشكي جوعو والقلهْ
قال لها القرضه بين الناس
عطيني لوقت الغلة
بالله قرضيني شي قوت
اتقوت فيه ولا موت
إلك أجر عند الله
ونحنا عنا ملكوت
موسم الجايه إقبال
انشا الله فيه بوفّيك
الفايظ مع الرسمال
وقبل آب بوافيك
طبعْ النمله ما بتقرض
هي أكبر خلّه فيها
شو كان شغلك وقت القيظْ
قالت للموافيها
قال لها وقت الحصايدْ
درْتْ السهل والوادي
عمّا غني قصايدْ
عادة أبي وجدادي
قالت له كنت تغني
يا خيّي شي بيهني
مادام بالرزقة غنيت
ارقص إن كان بترقص هالقيت

لقد توقفت حركة الترجمة للأطفال بعد رحيل الشاعرين رزق الله حسون والياس قدسي مدة تزيد على نصف قرن، وعلى الرغم من أن سورية بدأت بإرسال البعثات إلى فرنسا في ثلاثينات وأربعينات القرن العشرين. للحصول على شهادات الليسانس والماجستير والدكتوراه في التربية والفلسفة والآداب، وكان في عدادها نخبة من المتفوقين، أمثال: جميل صليبا، وحكمة هاشم، وحافظ الجمالي، وجميل سلطان، وأمجد الطرابلسي، وجودت الركابي، وسامي الدروبي، ومنير العجلاني، وعبد الهادي هاشم وغيرهم.. فإن أكثرهم انصرف بعد عودته إلى التعليم دون الاهتمام بالترجمة، باستثناء جميل صليبا، وسامي الدروبي، وحافظ الجمالي الذين رفدوا المكتبة العربية بعدد من الكتب المترجمة في مجال الفكر والفلسفة والفن والتربية، دون الالتفات إلى أدب الأطفال.

ولكنْ بعد أن اتسعت دائرة الإيفاد، وشملت دول المنظومة الاشتراكية سابقا كروسيا وبولونيا ورومانيا، وبلغاريا، وتشيكوسلوفاكيا، ويوغسلافيا، وهنغاريا، ودول بحر البلطيق وغيرها، أخذ بعض العائدين من الإيفاد بنقل العديد من الكتب الموجهة للأطفال، في الشعر والقصص والروايات والحكايات الشعبية.

كان أول كتاب تُرجم للأطفال، ونشرته وزارة الثقافة عام ١٩٧٠ هو كتاب (حكايا مهاجرة) للسيدة نجاة أبو سمرة الذي ترجمته عن الروسية، وبعد أن توقفت الوزارة مدة خمس سنوات عن نشر كتب الأطفال المترجمة، عادت فأصدرت لي عام ١٩٧٥

ديوان (عندما جاءت عصافير الدوري) للشاعرة البلغارية ليدا ميليفا الذي ترجمته عن اللغة الإنكليزية وكتب مقدمته الشاعر سليمان العيسى، وضم ثماني وعشرين قصيدة للأطفال، وعدداً من الصور الملونة المنشورة في الكتاب الأصلي.

وفي عام ١٩٧٦ أصدرت لي الوزارة نفسها كتاباً ثانياً بعنوان (مدرسة اللقلق) ضم ثماني عشرة قصة روسية دون أن يحتوي صوراً، كما أصدرت كتابين آخرين هما (الشموس الثلاث) ترجمة ميخائيل عيد عن البلغارية و (مصير قارع طبل) ترجمة هشام الدجاني عن الإنكليزية، وفي عام ١٩٧٧ أصدرت لي الوزارة كتاباً ثالثاً هو (الفأس الذهبية) ضم عدداً من القصص الروسية والأوكرانية والبلغارية والصينية والهندية والأستونية واللاتفية والطاجيكية.. إضافة إلى كتابين آخرين هما (دموع العصفورة ذات الجناحين الفضيين)، ترجمة ميخائيل عيد، و (الأخوة الثلاثة) ترجمة هاشم حمادي.

وفي عام ١٩٧٨ أصدرت لي الوزارة كتاب (دنيا الحكايات) الذي ضم عشرين حكاية للكاتب البلغاري الشهير أنجل كاراليتشف، إلى جانب أربعة كتب أخرى هي: (الأرنب والتمساح) ترجمة وجيه جبر، و (الأرنب المخملي) ترجمة رباب هاشم، و (مغامرات الجرذ واليربوع) ترجمة هاشم حمادي، و (الأرنب قصير الأذن) ترجمة ميخائيل عيد عن اللغات الفرنسية والإنكليزية والروسية والبلغارية.

أما في عام ١٩٧٩ الذي صادف العام الدولي للطفل، فقد قفز عدد منشورات وزارة الثقافة إلى سبعة عشر كتاباً، لكنه تراجع عام ١٩٨٠ إلى أحد عشر كتابا، واستمر هذا العدد يتأرجح بين الارتفاع والانخفاض، تبعا لما كان يقدمه المترجمون للوزارة من كتب، والجدير بالذكر أن الوزارة اضطلعت بنشر ٤٣% من كتب الأطفال المترجمة عن مختلف اللغات العالمية.

يقول الدكتور عيسى الشماس في كتاب (أدب الأطفال في سورية ١٩٧٠ - ٢٠٠٢) الذي نشرته وزارة الثقافة بالاشتراك مع منظمة اليونيسيف عام ٢٠٠٣: "إن عدد الكتب المترجمة من قصص الأطفال المنشورة من عام ١٩٧٠ حتى عام ٢٠٠٢ بلغ ثلاث مئة وثلاث مجموعات، شاركت فيها وزارة الثقافة إلى جانب تسع وعشرين دارا للنشر، عدا ما نشره المترجمون على نفقاتهم الخاصة، وقد بلغت حصة الوزارة فيها مئة وثلاثين مجموعة".

أما دور النشر التي أسهمت في نشر قصص الأطفال المترجمة فهي: الحقائق، الإيمان، نوبل، الجندي، الطليعة الجديدة، ميسلون، الطالب العربي، الغدير، ريم، المعارف، الإرشاد، كرم، طلاس، الحوار، البشير، الجليل، مشرق مغرب، علاء الدين، المتنبي، الحصاد في كل من دمشق وحمص واللاذقية.. وقد تفاوت عدد المنشورات في هذه الدور الخاصة بين كتاب واحد وثلاثين كتاباً.

يلاحظ من الاطلاع على عناوين القصص التي نشرتها هذه الدور تكرار بعضها، مثل (بائعة الكبريت) للكاتب الدانماركي هانس كريستيان أندرسن، فقد أصدرتها دار كرم بعنوان (بائعة الكبريت) ودار الإرشاد بعنوان (بائعة الثقاب الصغيرة) ودار البشير بعنوان (بائعة الكبريت في ليلة العيد).. وكذلك قصة (ثياب الامبراطور) أندرسن نفسه، فقد وردت بعناوين متعددة مثل (الملك والحائك) و (بزة الامبراطور) و (ثياب الامبراطور الجديدة) وكذلك قصة (حورية البحر) التي وضع لها بعض المترجمين عنوان (أميرة البحر) وبعضهم الآخر (عروس البحر الصغيرة) وهكذا..

ويعلق الدكتور عيسى الشماس على ترجمة الموضوع الواحد من أكثر من مترجم، بأنه يفتح الباب للترجمة الجيدة، ولكنه من جانب آخر، قد يسيء إلى بنية النص الأصلي،

بحيث تبدو صعوبة التمييز الدقيق بين الترجمات، وبالتالي الحكم على الأفضل منها، إلا من قبل الخبير المتخصص.

لقد بلغ نشر قصص الأطفال المترجمة ذروته ما بين عام ١٩٨٧- ١٩٩٤، لكنه أخذ بالتراجع والتناقص بدءا من عام ١٩٩٥ بسبب عزوف المترجمين عن الترجمة، لضآلة المبالغ التي تدفعها دور النشر الرسمية والخاصة للمترجمين، فما تدفعه هذه الدور لا يوازي الجهد والعناء المبذولين في الترجمة.

كذلك يتساءل الدكتور عيسى الشماس: "لماذا تراجعت وزارة الثقافة في السنوات الأخيرة عن ترجمة قصص الأطفال؟ ولماذا توقفت دور نشر كثيرة عن نشر هذه القصص، تاركا هذا التساؤل دون جواب، واكتفى بالقول: "إن الجواب عند المعنيين بذلك من المترجمين والناشرين".

أما أنا فأرى أن السبب مادي بالدرجة الأولى كما أسلفت، وقد يكون ناجما عن غلبة عدد المؤلفين على المترجمين، فالتأليف في نظري أسهل من الترجمة، إذ لا يشترط بالمؤلف إتقان أي لغة أجنبية، بعكس المترجم الذي يجب أن يتقن اللغتين معا، فضلا عن أن اختيار القصص الواجب ترجمتها ليس بالأمر السهل، فقد يقرأ المترجم عشرات القصص حتى يختار واحدة ملائمة، إذ يشترط أن تتضمن القصة المترجمة قيما فكرية وإنسانية وتربوية وخلقية كأن تحث على المحبة والفضيلة والتعاون والغيرية ومساعدة الضعفاء، ونبذ الأنانية والتسامح.. مما قد لا تتوافر في القصة المطلوب ترجمتها، أما المؤلف فيستطيع أن يختار هذه القيم كلها أو بعضها، ويضمنها قصته بارتياح.

أحب أخيرا أن أتوقف عند بعض الملاحظات التي توصلت إليها بعد قراءة العشرات من القصص المترجمة منها:

١ - إقدام عدد كبير من المترجمين غير الأكفياء على الترجمة، وهم يفتقرون إلى أبسط قواعدها وأدنى مبادئها، فبعضهم لا يتقن اللغة العربية، ويخطيء في صرفها ونحوها، ومع ذلك تقبل دور النشر الرسمية والخاصة كتبها المترجمة وتنشرها دون تصحيح الأخطاء الواردة فيها، وأعتذر عن ذكر أسمائهم.

٢- تكرار بعض القصص المترجمة، لجهل المترجم ما إذا كانت هذه القصص قد ترجمت من قبل أم لا، لذلك أرى أنه يجب تشكيل لجان خاصة للإشراف على ما ينشر من أدب الأطفال المترجم، كي لا تضيع الجهود، ويهدر الوقت والمال، وتلافيا لهذا التكرار، أحدثت وزارة الثقافة مؤخرا مديرية خاصة بثقافة الأطفال، غايتها تنسيق الأعمال المترجمة والإشراف عليها.

٣- يستحسن أن يكرس اتحاد الكتاب العرب بدمشق بعض اهتمامه وجهوده لنشر أدب الأطفال المترجم، ولا ينفرد بنشر القصص الموضوعة حصرا، وبذلك يخفف شيئا من العبء الذي تحمله وزارة الثقافة.

٤- الاهتمام بتزويد الكتب المترجمة بالرسوم الملونة المشوقة، وفي حال عدم توافر الرسامين، يمكن استخدام الرسوم الأصلية المنشورة في الكتب المنوي ترجمتها.

٥- تأليف جمعية خاصة في نقابة الفنون التشكيلية بالرسامين للأطفال، تقتصر رسومها على تزيين كتب الأطفال المؤلفة والمترجمة. وتختص بهذا اللون من الرسوم.

٦- تأسيس دور نشر خاصة بنشر كتب الأطفال، كدار الغد الإنساني بدمشق التي نشرت عددا لا بأس به منها، ثم توقفت عن النشر، وقد حصرت منشوراتها بالقصص المترجمة فقط.

٧- اختيار مدقق لغوي كفء لمراجعة الكتب المترجمة، يجيد اللغة المنقول منها والمنقول إليها.

٨- السماح للقطاع الخاص بإصدار مجلات للأطفال لرفد مجلات القطاع الرسمي، تحتضن كل ما يؤلف أو يترجم للأطفال، وبسعر معقول وضبط ما ينشر فيها بالشكل الكامل.




عذابات روح..

شعر : حسان الصاري

نـــسيتُ الهـــمَّ واختـــرتُ الأمانـــي
وجـــئت إلـــيكِ يـــسبقني حنانـــي
يعاتبنـــي علـــى النـــسيان قلبـــي
وأخـــشى أن يـــصدِّقه لـــساني
لأنـــي صـــرتُ مـــنذ الـــيوم غيـــري
لأنـــي قـــد عـــرفتُ مـــن ابتلائـــي
ســـأجعل مـــن غـــدي دربـــاً لأمـــسي
ومـــن يومـــي سأشـــعل مهرجانـــي
وأخلـــع عـــن يـــدي قـــيدي وأمـــضي
بـــلا هـــدف كأعمـــدة الـــدخان
لعـــل الـــريحَ تحملنـــي بعـــيداً
وتلقينـــي علـــى شـــفة الموانـــي
وأبحـــــر لا يهـــــمُّ لأي أرضٍ
ســـوى أنـــي أفـــتش عـــن مكـــان
لقـــد عانـــيتُ بعـــد الـــيأس ضـــعفي
ومـــن ضـــعفي ســـيبتدئ امتحانـــي

* * *







لهـــذا اللـــيل إنـــصاتٌ كروحـــي
وأنّـــاتٌ كمجـــداف يعانـــي
ووسوســـةٌ تناجـــي خفـــق قلبـــي
وأصـــداءٌ تـــردّدها الثوانـــي
وغـــيماتٌ ممـــزقةٌ كحلمـــي
تبعثـــرها الـــرياحُ بـــلا توانـــي
فـــزعتُ إلـــيك مـــن نفـــسي ومنـــي
وجئـــتك مـــن غـــيابات الـــزمان
خذينـــي مـــن ضـــلالاتي وشـــكي
وجرينّـــي إلـــى دنـــيا الأمـــان
فقلـــبك لـــم يكـــن قـــبلٌ ولكـــنْ
أحـــاول أن أعـــود إلـــى اتزانـــي

* * *

أصـــدّق مـــا يقـــول الـــناسُ عنـــي
وأطفـــئ عامـــداً جمـــرَ احتقانـــي
ومـــا جـــردتُ قـــبل الـــيوم ســـيفي
ولا فكـــرت حتـــى.. بالطعـــان
ومـــا أســـرجتُ للأحقـــاد خيلـــي
ومـــا عكـــرتُ بالزلفـــى دنانـــي







فوجهـــــي دائمـــا مـــــرآةُ قلبـــــي

وهـــــذا الواضـــح الـــصافي بيانـــي

فزيدينـــــي التـــصاقاً فـــيك حتـــى

أرى الدنـــيا أو الدنـــيا تراني

تهيّـــبْتُ الخطـــوب فلـــم أزُرْهـــا

وزارتنـــي فقلـــت: لـــك امتناني

أعـــندك غيـــرُ هـــذا الحـــزن؟ قالـــت:

وأقـــسى قلـــت: لـــن أرضـــى بـــثان

أفيـــضي مـــنه ســـوف تـــرين صـــبري

يدندنـــه علـــى وتـــر الكمـــان

فهـــذا الحـــزنُ أصـــغرُ مـــن طموحـــي

فهـــلاّ كـــان حـــزنا غيـــر آنـــي

سأشـــتاقُ الدمـــوع ولا دمـــوعَ

فدمعـــي شـــحَ والباقـــي جفانـــي

لقـــد خـــتمَ الـــبكاءُ علـــى جفونـــي

كفانـــي مـــا أحملهـــا كفانـــي

لهـــذا الحـــزن ميـــزانٌ جديـــدٌ

أفـــصّله علـــى قـــدر اختزانـــي

فأحـــياناً تـــرجّحه الـــرزايا

وأحـــياناً تـــرجحه الأمانـــي







وأحـــيانـاً تـــساوى كفَّـــتاه

فأحزانـــي لأفراحـــي تدانـــي

فأرســلْ زفــرةً مــن بعــد أخــرى

لعــلَّ الهــم عــن عمــدٍ ســلاني

فتــسقط مــن ظنــنت بهــا ثــباتاً

وتعلــو أخــتها فــوق امتهانــي

* * *

عجيـــباتٌ تـــصاريف الـــزمان

تجافينـــي وتعـــشق مـــن قلانـــي

تمنّينـــي بـــأحلامٍ عـــذاب

وتحرمنـــي لذيـــذات المجانـــي

كأنـــيَ صـــرت للأحـــزان نهـــباً

تـــشاطرني وتأكـــل مـــن خوانـــي

أمـــا يكفـــيك مـــا ضـــيعت منـــي

ومـــا هـــتّكتِ مـــن ســـرٍ كوانـــي

ومـــا أنفقـــت مـــن عمـــري انـــتظاراً

علـــى أمـــلٍ تمـــادى بالحـــران

تقـــضى النـــصف مـــن عمـــري شـــقاءً

وكفـــك لـــم تـــزل تلـــوي عنانـــي







أحـــاول أن أشـــرِّق خلـــف حلمـــي

فتثنينـــــي عـــن الـــشرق الـــيدان

ولـــو غـــرَّبْتُ أخـــشى تمنعينـــي

كـــشأنك فـــي اســـتلابي وارتهانـــي

هبينـــي مـــن أُســـاراك الحـــيارى

أمـــا آن انفكاكـــي مـــن رهانـــي

* * *

سأكـــسر قُمْقمـــي وأجـــيء بـــرقاً

فقـــد (أتـــسعْت) مـــن بعـــد الثمانـــي

فهـــذا الـــرعد مـــيلادٌ جديـــدٌ

ســـيقتلع الـــزمانَ مـــن الـــزمان

وتهمـــي الأمنـــياتُ علـــى دروبـــي

وتـــورق كـــلُّ حالـــية لـــيان

وتـــرقص حولـــي الأطـــيار لهفـــى

علـــى رجـــع المـــثالث والمثانـــي

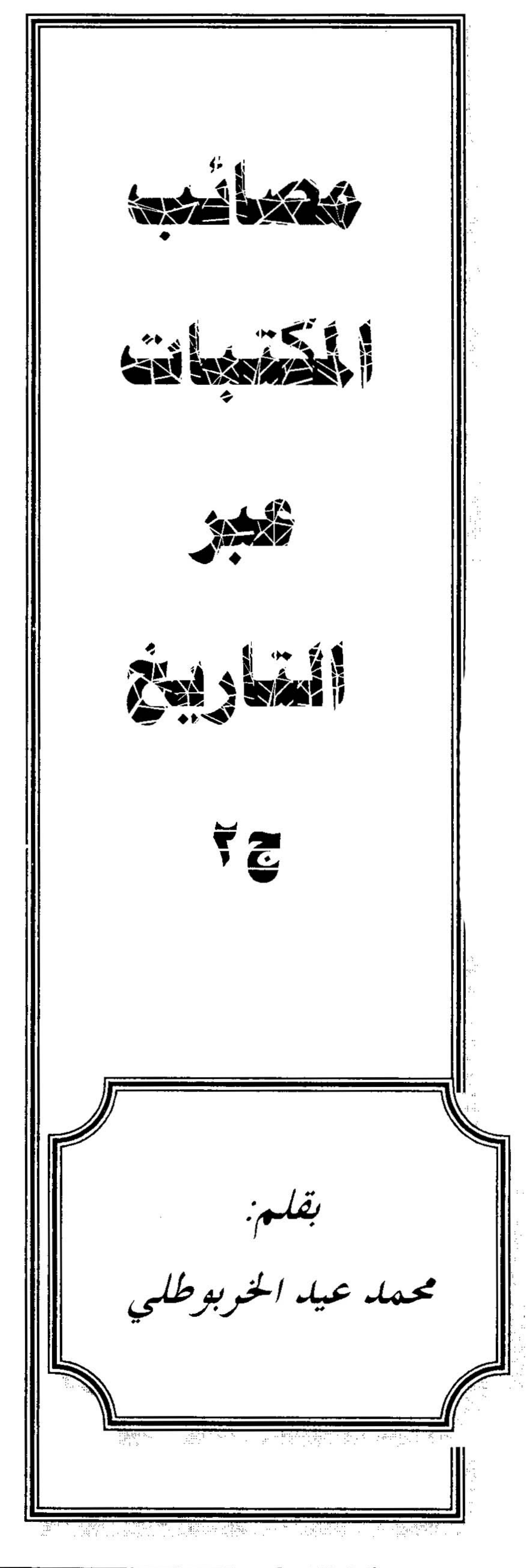
ولـــدتُ الآن مـــن رحـــمٍ جلـــيد

غذانـــي الخـــوف مـــن دمعـــي ســـقاني

ســـآتي لا يهـــم متـــى ولكـــن

ســـآتي والمطـــيَّة عنفوانـــي



شاعت ظاهرة إحراق المؤلفين لكتبهم بأنفسهم، أو تكليف من يقوم بإتلافها نيابة عنهم ومنهم أبو حيان التوحيدي الذي أحرق كتبه في آخر أيامه لأنه لم تعد تحقق أي هدف، ولأنه لم يشأ أن يتركها بعد وفاته لقوم لا يقدرون قيمتها، وفي رسالة يدافع فيها عن فعلته يقول: ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه أني فقدت ولدا نجيبا وصديقا حبيبا وصاحبا قريبا وتابعا أديبا ورئيسا منيبا، فشق عليَ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراوون نقصي وعيبي من أجلها.

ولعل التوحيدي أحرق أصول كتبه بعد أن تداولها الناس، أو مخطوطات كتبه التي لم يذعها على الناس، ومن المؤكد أنه اقتدى بغيره من الأوائل، فقد سبقه أبو عمرو بن العلاء الذي دفن كتبه، وداوود الطائي الفقيه الزاهد الذي رمى كتبه في النهر وأتلفها، ويوسف بن أسباط الذي حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحها فيه وسد بابه، وأبو سليمان الداراني الذي ألقى كتبه في فرن وأضرم النار فيها، وسفيان الثوري الذي فرق كتبه وطيرها في الريح، وكل هؤلاء الذين اقتدى بهم التوحيدي كانت تصرفاتهم غريبة لأنهم شكوا في الكلمة المكتوبة بصفة عامة، ولحال جذب صوفي عارم تخلوا فيه عما كتبوه.

وقد ورد عن عبيدة السلماني في القرن الهجري الأول أنه دعا بكتبه ومحاها وهو على فراش الموت ولما سئل عن ذلك قال: خوفي أن تقع في أيدي من يضعوها في غير موضعها، وروى الخطيب البغدادي أن أبا قلابة أوصى بكتبه إلى عالم آخر أو تحرق أو تمزق، أما يونس بن عيسى فقد أحرق كتبه بنفسه، وشعبة بن الحجاج أوصى ابنه أن يغسل كتبه أو يدفنها بعد وفاته، ونفذ ابنه وصيته، وكذلك بشر الحافي دفن ثمانية عشر صندوقا من الكتب.

يقول حاجي خليفة في كشف الظنون: واستمرت هذه الظاهرة فترة طويلة وذكر قائمة ممن فعل ذلك ومنهم ابن أبي الحواري فقد غسل كتبه وقال: نعم الدليل كنت لي على ربي، ولما ظفرت بالمدلول، الاشتغال بالدليل محال.

ويرجع حاجي خليفة ظاهرة إتلاف الكتب إلى سببين، رغبة رواة الحديث في الإعلاء من

شأن الرواية الشفهية وتفضيلها على النصوص المكتوبة، وحرص المتشددين والصوفية على أن تكون صلتهم بالله مباشرة وبلا واسطة من كتب وغيرها.

ولكن هذا الإتلاف الذي أقدم عليه البعض لم يؤثر على الكتاب ونشره، فحركة إنتاج الكتب كانت واسعة ومنتشرة، ويبقى إتلاف البعض لكتبه عملا فرديا، أما إتلاف المكتبات الكبيرة هو الذي أثر فيه، وهو الذي حرمنا من مكتبات يعجز العالم اليوم عن إنشاء مثلها.

ولكن بعضهم أتلفت كتبه عن غير قصد فعلي بن المديني توفي - ٢٣٤هـ كان من شيوخ البخاري، قال عنه الخطيب البغدادي: كان فيلسوف المحدثين وطبيبهم، ولسانهم وخطيبهم، وقد صنف كتابا عظيما سماه المسند، وتركه في بيته عندما سافر إلى الموصل، وبعد ثلاث سنين عاد إلى البصرة فرأى كتابه قد أكلته دودة الكتب وقضت عليه، فمات الكتاب في حياة مؤلفه.

أما محمد بن نصر المروزي فقد قال: خرجت من مصر فركبت البحر أريد مكة، فغرقت.. فذهب مني ألفا جزء.. وهكذا نرى أن إتلاف كتب بعضهم قد يكون عن قصد أو غير قصد.

أما المصائب الكبيرة التي نالت من المكتبات العظيمة فكانت نتيجة الجهل والتعصب والعداء، والقصد على قضاء ثقافة أمة كاملة.

إحراق الكتب والمكتبات:

إن من يقرأ تاريخ الكتاب يلتمس تاريخاً طويلا من معاناته ومؤلفيه عبر العصور، فجريمة إحراق المكتبات تكررت كثيرا عبر التاريخ، يقول أنيس سلوم في محاضرة ألقاها في المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٢٢م إن أول من عني بجمع الكتب سرجون الأول الذي أنشأ مملكة بابل قبل المسيح بنحو أربعين قرنا، وكان ظهيرا للعلم فجمع كتب العصور الخالية ونقحها ووضعها في المكاتب العظيمة التي شادها وهي أقدم المكاتب بالعالم وأثمنها.

وذكر ديودورس المؤرخ الصقلي أن أحد ملوك المصريين من الأسر الأولى أنشأ مكتبة في قصره بمدينة طيبة عاصمة ملكه وكتب فوق بابها (هنا دواء النفوس).

وفي عهد ملوك الأسرة السادسة في مصر قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف سنة كان أحد كتاب الدولة يفتخر بأنه تولى إدارة الكتب في المكتبة الملكية وطلب إلى ذويه أن ينقشوا ذلك على قبره تنويها بفضله وإحياء لذكره.

وقد عمت العناية بالكتب عند أكثر الشعوب القديمة كالآشوريين والفينيقيين والحثيين والعبرانيين والعرب والفرس والهنود واليونان والرومان وغيرهم، وبوساطتها حفظت أقوال الفلاسفة في كل العصور.

ولكن الحقد والتعصب الأعمى أدى إلى كوارث أنهت هذه المكتبات بعدما أحرقتها ودمرتها، ومن هذه المكتبات القديمة المشهورة:

- مكتبة أثينا عند اليونان: وقد أحرقها دارا ملك الفرس حينما اجتاح بلادهم ليدمر حضارتها، وقيل إنه نقل كتبها إلى بلاد فارس، وكذلك شهدت ساحتها حريق كتب الفلاسفة.
- مكتبة جزيرة ساموس: التي أنشأها بوليكرات.
- مكتبة أريسطو طاليس: التي استولى عليها تيوقراستس واشتراها بطليموس فيلا دلفوس ونقلها إلى الإسكندرية عاصمة ملكه.
- وفي روما في عهد دوميان شهدت الساحة العامة الفورم حريق الكتب.
- وكما أحرق النازيون الكتب قام الإمبراطور الصيني تشين شي هوانغ بحرق ٤٧٠ كاتبا خلال يوم واحد مع آلاف من الكتب ومنها كتب الفيلسوف كونفوشيوس.
- حريق مكتبة الإسكندرية:

وحريق مكتبة الإسكندرية ترك أسئلة تراود الناس المهتمين بالثقافة فأضحوا في موضع قلق وتساؤل عمن أشعل النيران فيها، هذه المكتبة التي كانت تعد من أعظم وأوسع المكتبات في العالم وحريقها أحزن الدنيا كلها، بلغت مجلداتها سبعمائة ألف مجلد في رواية، وتسعمائة ألف مجلد في رواية أخرى.. قال أنيس سلوم في محاضرته عن بطالمة مصر: أنهم كانوا ينسخون كل كتاب يصل إليهم على نفقتهم ويأخذون من كل أجنبي يدخل مصر كتبه وينسخونها بكل ضبط ويعطونه نسخها ويضعون الكتب الأصلية في مكتبة الإسكندرية ويدفعون إلى صاحبها مالا يرضيه، بهذه الطريقة جمعت المكتبة كل إبداعات الإنسان من علم ومعرفة، ولكنها ذهبت ضحية الصراع فأحرقت في صراع بين عظيمي الرومان يوليوس قيصر وأوكتافيوس، أحرق فيها البردي والدروج والجلود المكتوبة والورق الحريري، ولكن هل اندثر أرخميدس، ونظريات أفلاطون أوسقراط، إنهم نبتوا بعد الحريق كطائر الفينيق.

وبعد الميلاد لن ننسى محاكم التفتيش التي أحرقت الكتب مع مؤلفيها عندما رفعت شعار

الهرطقة ضد كل متمرد على سلطة الكنيسة أمثال الفيلسوف سافونا رولا، جيوردا نويرنو، ميخائيل فيتويوس، بالإضافة إلى حرقهم لمئات الآلاف من الكتب العربية بعد سقوط غرناطة.

وكما مر معنا اهتمام العرب والمسلمين بالكتب والمكتبات بفضل تعاليم الدين الذي حض على العلم، وبالرجوع إلى الوراء نرى أن العرب في العصور القديمة كانوا من أشد الأمم الشرقية ولوعاً بالكتاب وجمع الكتب، فتركوا آثاراً كثيرة من كتاباتهم في ارض بابل كشرائع حمورابي الذي أنشأ الإمبراطورية البابلية القديمة نحو ٢٢٥٠ ق.م، وكانت هذه النقوش منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الأسود الصلب وهم من أقدم الكتابات التي وصلت إلينا، وكذلك الآثار التي تركها العرب في بلاد اليمن وغيرها.

الصليبيون ومكتبات العرب

يرى العلامة محمد كرد علي في دراسة نشرها في مجلة المقتطف عدد نيسان ١٩٢٩م، أن المصيبة الأولى بل العظمى التي أصابت الكتب كانت على عهد الصليبيين، والمصيبة الثانية في عهد هولاكو، بما أحرقوه وما حملوا معهم من أمهات الكتب من مدارس دمشق ومكتبات مساجدها ومن كل البلاد التي دخلوها.

يقول كرد علي: "من الخزائن التي بلغنا دمارها في الحروب الصليبية خزانة أسامة بن منقذ أحد أصحاب قلعة شيزر فقد كان فيها أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، أرسل بها بعد أن أخذ عهداً من الصليبيين من دمياط إلى عكا فنهبوها ومعها ثلاثون ألف دينار وذهابها أورث في قلبه حزازة إلى موته، لأنها نكبة تزعزع الجبال، وتفني الأموال".

حريق مكتبة طرابلس الشام:

إن من أكبر النكبات التي أصيبت بها الكتب في الشام نكبة مكتبة طرابلس لما غزاها الصليبيون وأحرقها صبخيل وأخذ منها بعضها معه، يقول محمد كرد علي اختلفت الروايات في عدد المجلدات التي كانت في خزانتها وعلى أصح الروايات أنها كانت تحتوي على مائة ألف مجلد وأوصلها بعضهم إلى مليون مجلد، وصل إليها العدو بحقده ودمرها بعد حصار دام أربع سنوات من البر والبحر ومنع المؤن عن طرابلس حتى الخبز، فدخلوها وأنهار الدماء تسيل وأشلاء المواطنين ملتصقة بالجدران، حتى أوصلهم حقدهم الأعمى إلى الحبر فهاجموا مكتبة آل عمار حكام المدينة وكانوا من القضاة، هذه المكتبة الضخمة التي أوقفها أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار ومن بعده الأمير علي بن محمد بن عمار وجددها سنة ٤٧٢ هـ ثم فخر الملك عمار بن محمد حتى صارت طرابلس في زمن آل عمار جميعها دار علم كما قال ابن الفرات، وكان في تلك الدار مائة وثمانون ناسخا ينسخون لها الكتب بالجراية، فضلا عما يشترى لها من الكتب المنتخبة من البلاد، ويذكر ابن الفرات أن عدد الكتب فيها نحو ثلاثة ملايين كتاب عندما أحرقتها الصليبيون سنة ٥٠٣ هـ ولعله يقصد عدد الكتب الموجودة بطرابلس كلها والتي أوقفها آل عمار لطلبة العلم الذين كانوا يقصدونها من كل أنحاء العالم، وعندما أمر القائد ضجيل بإضرام النار فيها أول ما حرق منها خزانة القرآن ولكن نبهه البعض أن في المكتبة كتب سوى القرآن فأمر بإطفاء النار ونقل ما بقي إلى المراكب حيث عادوا بها إلى أوروبا.

وهكذا انتهت أكبر مكتبة في العالم بوقتها.

ويذكر المستشرق الفرنسي كاترميار وهنري لامنس عن نص لابن الفرات.. أنها كانت تحوي نسخا من المصاحف بلغت خمسين ألفا فضلا عن التفاسير التي قدر عددها بعشرين ألفا، وذكر أنها كانت تحوي ثلاثة ملايين مجلد في مختلف العلوم والفنون والآداب والعقائد والتفسير.

مكتبة ألموت:

ألموت عاصمة الدولة الإسماعيلية النزارية في فارس أسس فيها الحسن بن الصباح مكتبة كبرى كانت غنية بكتب الفلسفة وعلم الفلك والتقاويم والزيجات والإسطرلابات، وتعهدها فيما بعد الفيلسوف نصير الدين الطوسي فأسبل عليها من جهوده ومعرفته، ونقل إليها أعدادا من الكتب النادرة في العالم، حتى بلغت محتوياتها مليون ونصف مجلد، وحينما استولى هولاكو على قلعتي ألموت وميمون أعمل فيها الغارة ثم أشعل فيها النيران بعد ذلك، وقد استطاع عطا ملك الجويني أن يستأذن هولاكو في أن يحتجز لنفسه جملة من الكتب القيمة من فلسفة وحكمة وآداب وتاريخ وطب وجبر وهندسة وفلك وفقه وفنون وبعض الأدوات والمراصد المستعملة لرصد النجوم وحركات الفلك.

مكاتب بغداد - بلاد الرافدين:

لم تكن المكتبات في بلاد الرافدين أحسن حظاً من غيرها، فقد احترقت مكتبة سابور ٤٥١ هـ ونهبت ولم يعد لها ذكر بعد ذلك التاريخ وقد أسسها الوزير أبو نصير سابور بن أزدشير، وزير بهاء الدولة البويهي سنة ٣٨٢ هـ وكان الشريف المرتضى من أشهر خزنتها، وكان أبو العلاء المعري يكثر التردد إليها عندما كان في بغداد.

وكذلك مكتبة المدرسة النظامية في بغداد دمرت وتشتت شملها وتبعثرت كتبها بتوالي الأحداث عليها وقد أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك سنة ٤٥٩هـ وقد عمل فيها خيرة العلماء أمثال: الأبيوري والشيباني،وبقي الإمام الغزالي يشغل أحد كراسي الأستاذية فيها مدة أربع سنوات.

ومكتبة دار الحكمة في بغداد فقد أطفأ شعلتها المغول وما بقي منها ألقي في نهر دجلة فاسودت مياهه من كثرة ما ألقي فيه من كتب، ويذكر بعض المؤرخين أن هولاكو بنى اصطبلاً للخيول من مجلدات الكتب، وأقام ثلاثة جسور منها على نهر دجلة، فكان الفارس يعبر عليها من ضفة إلى أخرى، هذه المكتبة التي حاضر فيها الخوارزمي وابن إسحاق وغيرهما الكثير من عمالقة الفكر الإنساني في كل العلوم والفنون.

المكتبة الفاطمية في القاهرة:

احتذى الفاطميون في القاهرة العباسيين بإنشاء المكتبات الكبيرة، فأنشأ العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين في مصر في القرن الرابع للهجرة خزانة للكتب، وخصص لها غرفاً في قصره، وبذل أموالاً جمة في جمعه للكتب، وكانت تحوي مليون وستمائة ألف كتاب، وكان فيها نسخ متعددة للكتاب الواحد من ذلك ١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبري إحداها بخط المؤلف و٣٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة وموشاة بالذهب والزخارف، ولكن أصابتها المحن من العبيد والأعاجم فأحرق معظمها وألقي بعضها في النيل واتخذ العبيد من جلودها نعالاً، ولكن أنشأ الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله خزانة أخرى أسماها دار الحكمة وتسمى (دار العلم) وأقام بها القراء والمنجمين والنحاة واللغويين والأطباء، وأجرى لهم الأرزاق وأباح الدخول إليها لسائر الناس لتعم الفائدة، وسمح بالمناظرة فيها بين المترددين إليها من أهل المعرفة، وقد أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش ثم أعيدت، وذكر المقريزي أنها واسعة جداً وتحوي أكثر من مائة وعشرين ألف مجلد ولكن أبا شامة أكد أنها تزيد عن مليوني كتاب أما ابن العديم فذكر أنها بلغت ثلاثة ملايين كتاب وكانوا يحضرون الفلاسفة إليها ليلقوا المحاضرات والدروس على الراغبين من طلاب المعرفة فقد كانت كالجامعة الشاملة، وممن أحضر الفيلسوف الكرماني من العراق وأقام في مصر مدة طويلة وألقى المحاضرات العديدة، وكذلك جيء بالمؤيد مناظر المعري وألقى ثمانمائة محاضرة جمعت في موسوعة اسمها المجالس المؤيدية ولكن أحرقت كغيرها ونهبت، ولا ننسى المكتبة التي خلفها أفرايم الطبيب في مصر والتي بلغت أكثر من عشرين ألف مجلد.

حرق مكتبات الأندلس:

عرفت الأندلس الحضارة مدة ثمانية قرون فأنتجت الكتب الكثيرة في مختلف العلوم والآداب والفنون، فكانت الأندلس الدرة المفقودة بحضارتها قبلة طلاب العلم والمعرفة من كل أنحاء العالم.

هذه الأندلس التي دخلها العرب مرتين الأولى عندما دخلها العرب الفينيقيون وأسسوا فيها مملكة قرطاجة في تونس وتوسعوا فيها ودعوها قرطاجين، والمرة الثانية سنة ٧١٢م عندما فتحها طارق بن زياد وتوغلوا فيها حتى وصلوا جنوبي باريس بعدما اجتازوا جبال البرينية، يقول واشنطن أرفينغ في كتابه (الحمراء) الذي ألفه قبل وفاته سنة ١٨٥٩م أن القرون الثمانية من التواجد العربي على تلك الأرض كانت قرون إشعاع حضاري على العالم من الأندلس، قام به رجال فتحوا وحكموا وازدهروا.

وعرفت الأندلس المكتبات الكبيرة والشهيرة فقد عُرف الأندلسيون منذ القرن الرابع الهجري بحبهم للتحصيل العلمي واقتناء الكتب، وكان رائدهم في ذلك وقدوتهم الخليفة الحكم المستنصر بالله الذي توفي ٣٦٦هـ/٩٧٦م وبالرجوع إلى كتب التراجم والتاريخ الأندلسية نجد أن الحكم المستنصر كان محباً للعلم وأهله، حريصا على استجلاب كل كتاب جديد من كافة أنحاء العالم وفي كل العلوم، وكان يحفظها في مكتبة القصر ويقرؤها ويعلق عليها، قال صاعد بن أحمد عن ذلك: استجلب الحكم من بغداد ومصر وغيرهما من

ديـــار المشرق عيون التآليف الجليلة والمصنفات الغــريبة في العلوم القديمة والحديثة، وجمع منها مـــا كـــاد يضاهي ما جمعته ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة، من شدة فرطه في محبته للعلم..

ويقول ابن حزم القرطبي: أن تليداً الفتى – الــذي كان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأنـــدلس – أخبــره أن عدد الفهارس التي كانت فـــيها تـــسمية دواوين الشعر فقط أربع وأربعون فهرســـاً، وفي كل فهرس خمسون ورقة ليس فيها إلا ذكـــر أسماء الدواوين فقط والتي بلغت الآلاف وكانـــت تحتوي سائر العلوم العقلية والنقلية التي ترجمها وألفها العرب خاصة علوم الزراعة والفلك والرياضـــة والطـــب والكيمـــياء والموسيقا، وفي أصـــول الدين والتوحيد والفقه والحديث والتفسير وفـــي فـــنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات ومعاجم اللغة وغير ذلك.

وكان للخليفة وراقون في مختلف الأقطار ينتخبون له غرائب التواليف ، وكان كثير الاهتمام بكتـــبه يطالعهـــا ويصححها وقلما يوجد كتاب في مكتبته إلا وله فيه قراءة ونظر من أي فن كان من فـــنون العلـــم، وكـــان يكتب بخطه نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة لـــه... فـــصار علمـــاء الأندلس ينقلون من خطه ويحاضـــرون بـــه لكـــونه ثقة مأموناً على الكتاب والعلـــم ولا ينسى التاريخ مكتبة الصاحب بن عباد التـــي قـــيل عنها أنها تنقل على ١١٧ بعير، وقال بعض الأدباء إنها تنقل على ٤٠٠ بعير.

وكذلك كانت مكتبة ابن العميد التي بلغت حمل مئة بعير وغيرهما.

ويذكر التاريخ أن المنصور بن أبي عامر الحاجـــب الأندلسي من القرن الرابع الهجري كان شـــغوفاً بالفلـــسفة عاكفـــاً علـــى خـــزانة الحكم المستنـــصر يطالـــع فـــي كتـــبها ويروي عطشه للمعرفة، ولكن يد الحقد الأعمى والتعصب المقيت طالـــته، وطلبت منه إخراج كتب الفلسفة وإتلافها وحرقها، وهو لا يقدر على غضبهم فيألبون العامة علـــيه، فنـــزل تحت رأيهم رغما عنه مخافة عزله وعـــدم تأييدهم – وهو ما يخشاه – وهكذا اقتضت السياسة أن يخرج ما في خزانة الحكم المستنصر وكان فيها ما يزيد عن ٤٠٠ ألف مجلد، فألقى بها جمـــيعا فـــي المحـــرقة التـــي حرقت إبداع الفكر الإنـــساني بعـــد أن عـــزل منها بعض كتب الطب والحـــساب والفقـــه المالكي، وكل هذا كان كرمى للجموع التي أرضاها فضحى بالفكر والفلسفة من أجل السياسة، وإرضاء للعقول الجامدة التي صنع حـــولها طبقة من الإكليروس العفن ولم تفهم الدين حـــق الفهـــم، فمتى كان الدين يحجر آراء الغير؟ ومتـــى كـــان لا يدعـــو للعلم والمعرفة والنظر في الأمور كلها!.

وذهـــبت هـــذه المكتبة التي كانت أشهر مكتـــبة فـــي الأندلس والمغرب بما تحويه، مكتبة الحكـــم الـــذي كـــان لا يـــرى في قصره إلا الكتبة الناســـخون والمجلـــدون وحملـــة الـــورق والحبر والمزخرفون، وكان لا يتقرب إليه إلا بالكتاب..

وقد ذكر المؤرخ المستشرق الإسباني – كونده – سنة ١٨٢٠ أن الأسبان لما استولوا على قـــرطبة حـــرقوا كل ما طالته أيديهم من مصنفات العـــرب المـــسلمين وعددها مليون وخمسون ألف مجلـــد جعلـــوها أكـــواماً وأحرقوها في يوم واحد احـــتفلوا بـــه ثم عادوا وأحرقوا سبعين مكتبة من مكتـــبات الأندلس الكبيرة، عدا ما أتلفوه في باقي الأقاليم من الكتب.

ولكـــن إن نجـــا بعض المكتبات من جهل المتعـــصبين فإنهـــا لم تنج من حقد الأعداء الذين أرادوا محـــو حـــضارة ثمانية قرون في الأندلس، فقـــصة الكاردينال فرانسيسكو خمينيس مع الكتاب العربي في الأندلس معروفة، هذا الرجل عاش في طلـــيطلة، وكـــان مـــسيطرا علـــى الملك فرديناند وعراف الملكة إيزابيلا خاصة بعد سقوط غرناطة، وكان مقرباً من أذن الملكة وقلبها فزين لها احتلال الـــشاطئ المغربـــي ونزل مع الجيش الإسباني في وهـــران، فـــازدادت الملكـــة إعجابا به، فزين لها مكاتب التحقيق التي تعرف باسم (محاكم التفتيش) وابـــتدع طـــرق التعذيب الجهنمية التي صبها على المسلمين قرابة قرنين ونصف، ولكنه لم يرتو من حقـــده الـــذي صـــبه على العرب من إزالة ملكهم وتدمير حضارتهم فتمخضت عنه فكرة جمع الكتب العربية في الأندلس – والتي لا يعلم عددها إلا الله فقـــد كانـــت الأندلس من أكبر مراكز الفكر العربي وأكثرها خصبا وإنتاجا في كل العلوم – جمع الكتب فـــي الساحات العامة وفي كل المدن ثم أوقد فيها النيـــران ليلغـــي وجود ثقافة عمرها ثمانية قرون ولـــيجعلها رمـــادا، ومـــع كـــل هذا الحقد احتفظ بثلاثمائة كتاب عربي في الطب.

إنها مذبحة فكرية لمحو الفكر العربي في الأندلس، ولكن الفكر عاد ونبت وأورق وأثمر وإن

تغيـر مكانه لكنه بقي موجودا وبقيت آياته وآلاؤه مـضيئة، وذهب خمينيس وما عاد يسمع به أحد، وطالمـا نـتكلم عن إحراق كتب ومكتبات الأندلس فإننـا لـن ننـسى ابن حزم الأندلسي، الفيلسوف والقاضـي والفقـيه والشاعر، الذي يعده كثير من المستـشرقين المؤسـس الحقيقـي لعلـم مقارنة الأديـان، وكان ابن حزم يؤمن بالمذهب الظاهري، وكـان سياسـيا حـاد اللسان في التعرض لفقهاء عصره الجامدين، لذلك اضطهد ونفي وشرد وعذب وسجن، واستطاع خصومه أن يؤلبوا عليه المعتمد بـن عـباد حاكم إشبيلية، وتوصلوا إلى استصدار قرار يقضي بإحراق كتبه علنا، وهذا ما حدث، وقد قال ابن حزم قصيدته في رثاء كتبه متحديا أعداء الكـتاب ومنها قوله يتحداهم على محو علمه من صدره:

فـإن تحـرقوا القرطاس لن تحرقوا الذي

تـضمنه القـرطاس بـل هو في صدري

يـسير معـي حـيث اسـتقلت ركائبـي

ويـنـزل إن أنـزل ويـدفن فـي قبـري

لكـن من حظ الفكر الإنساني، أن تلاميذ ابـن حـزم نقلوا للأجيال بعضاً من تراث أستاذهم وفاء له، حيث كانوا يحتفظون بكتبه ورسائله، ولم يـصلنا سـوى عدة كتب من بين حوالي أربعمائة مجلد تشتمل على ثمانين ألف ورقة كما ذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء.

إن الـذي جـرى مع ابن حزم ما هو إلا نتـيجة التعصب من قبل جمهور المقلدين الذين لا يعملـون فكرهم ولا هم يتبصرون واكتفوا بالتقليد الأعمى.

وكـذلك وقعـت كتب الفكر الإسلامي في أزمـات عديدة انتهت إلى الحريق، وغالباً ما كان وراء حـرقها النزعات السياسية التي تلبس لباس الدين تقرباً من السلطة فابن رشد أحرقت كتبه في قـرطبة بعدما أوغر علماء السوء صدر السلطان علـيه فـي موجة التعصب الأعمى التي اكتسحت فقهاء عصره الجاهلين الذين لا هم لهم إلا إرضاء الـسلطة ولـو ذهبت كرامة العلم والعلماء، وكان حجـتهم أن ابن رشد كفر في بعض كتبه فصارت إلى ألسنة اللهب تلتهمها.

وكذلك احرق كتب إحياء علوم الدين لأبي حامـد الغزالـي فـي ساحات فاس تعصبا، مع أن كـتابه مـن أجل كتب الدين، ولكن لشهرته اتهمه بعـض الفقهـاء بالإلحاد، وكذلك فعلوا بكتب ابن عربـي، وكـتب ابن المارستانية في بغداد للتهمة نفسها.

ولكـنها كانت غضبات عابرة ما لبثت أن تقـشعت كغـيوم الصيف، وإن عادت في عصرنا بصور قريبة لها فما إن يخرج أحد المفكرين كتابا حتـى تـنهال علـيه فتاوى التكفير والتفريق بينه وبين زوجته وحلل دمه، ولكن من قبل من ؟ إنهم أنـاس ينتـسبون للـدين ظلمـا وزورا قد نصبوا أنفـسهم قضاة يحكمون على غيرهم هذا إلى النار إن خالفهم ومن وافقهم كان معهم في الجنة.

وبالعـودة إلى التاريخ نرى بعض الملوك إذا غـضبوا على بعض أتباعهم فإنهم ينزلون جام غضبهم عليهم وعلى فكرهم، فهذا الملك المنتصر الحفـصي فـي تونس غضب على كاتبه الأندلسي (ابـن الأبـار) فأرسل المفتشين إلى بيته فوجدوا مقطـوعة فيها: ما بعده جاء خلف... سموه ظلما خليفة.

وكـان ذلك حجة على إنهائه فظن الملك أنـه المقصود، فأمر أن يقتل بالرماح، وأن تحرق عظامـه مع كتبه التي ألفها، وكانت ثلاثا وأربعين كـتاباً، فاندثـرت معه إلا بعض ما كان قد نسخه الناس عنه.

مكتبة سبتة:

كـان فـي مدينة سبتة قبل سقوطها في أيـدي البرتغاليين اثنتان وستون خزانة علم، منها للأغنياء،ومـنها للعلماء، ومنها للعامة كانت وقفا لطلاب العلم، يقول محمد بن القاسم الأنصاري: إن أعظـم الخـزائن العلمية في سبتة إحدى خزانتي الجامع العتيق الكائنة بشرقي صحنة، لا يوجد علم أو فن أو نوع من المعارف إلا وفيها كتبه، ولكنها أحرقت وأبيدت سنة ٨١٨هـ /١٤١٥م.

مكتبات دمشق الشام:

كذلك لم تسلم مكتبات دمشق كغيرها من المـصائب، ولكـن جـاءت بعدة صور.. منها أن الـصليبيين مـنذ دخولهم بلاد الشام أخذوا يقتنون الكـتب العربية ولكن على صورة ضعيفة لأن العلم بهـا كـان معدوماً عندهم فهم يقتنونها على أنها عاديـات قديمة غريبة الوضع والشكل، ولكن لما لمعـت في القرن السادس عشر شعلة النهضة في

إيطاليا أراد الباباوات اقتناء الكتب العربية، فندبوا لذلك بعض العارفين بها من رهبان الموارنة فحملوا إلى رومية من أديار لبنان ما كان محفوظاً فيها من كتب الدين والعلم مما كان مكتوباً بالعربية والسريانية.

وحمل يوسف السمعداني من لبنان سنة ١٧٦٨م كتباً بلغت ثلاثة مراكب إلى رومية، ملأها بالمخطوطات، غرق منها مركبان ويقدر ما فيهما بعشرات الألوف من المجلدات.

ومن المصائب التي أصابت مكتبات الشام، أن بعض دول أوروبا ومنها فرنسا وألمانيا وبريطانيا وهولندا وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر الكتب من الشام، تبتاعها بوساطة وكلائها وقناصلها والمبشرين من رجال الدين، وكان القيمون على المساجد والمدارس يتسمون بشعار الدين وهم جهلاء لا يتورعون في مال الوقف، ففضلوا الذهب الرنان والفضة اللامعة على أنفس الكتب التي أوقفها أصحابها على المساجد والمدارس من مئات السنين، فخان هؤلاء الأمانة واستحلوا بيع ما تحت أيديهم حتى أنهم سرقوا ما عند غيرهم وتصرفوا فيه وكأنه ملكهم.

يقول محمد كرد علي حدثني رواة ثقات معاصرين شاهدوا ما حدث فقال بعضهم: إن أحد سماسرة الكتب في القرن التاسع عشر كان يغشى منازل بعض أهل الدين ويغريهم بالمال، وكذلك يفعل مع متولي خزائن الكتب في المدارس والمساجد فيبتاع منها ما طاب له من المخطوطات بأثمان زهيدة ويبيعها إلى قنصل روسيا وغيره، وقد جمع هذا القنصل من الشام وأطرافها خزانة مهمة رحل بها إلى بلاده وقدمها إلى حكومته وكافأته على عمله.

وهكذا تجمعت مخطوطاتنا العربية في الدول الأجنبية وصار علماؤهم يدرسونها ويفيدون منها، قال أحد علماء الألمان بعد اطلاعه على هذا التراث الضخم: إن العرب واضعي هذه المصنفات جديرون بإرث الشرق في مادياته ومعنوياته وقال بعضهم إن أمة خلفت هذا التراث يجب أن لا تسقط.

ويذكر محمد كرد علي مصيبة أخرى أصابت مكتبات دمشق فيقول:

الفجائع والمهازل التي أصابت الكتب والمكتبات كثيرة ومنها -قبة صحن الجامع الأموي بدمشق - التي كانت مليئة برفوف نفسية، فقد فتحت سنة ١٣١٧هـ بأمر السلطان عبد الحميد الثاني العثماني، إجابة لرغبة الإمبراطور - غليوم الثاني - الألماني، وقد عثروا بداخلها على قطع من الرقوق كتبت فيها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي، وقطع مهمة من مصاحف وربعات، وقطع من الأشعار المقدسة بالآرامية الفلسطينية، وكتابات دينية وأدبيات دينية وقصص رهبانية ومزامير عربية مكتوبة بالخط اليوناني، ومقاطيع شعرية لهوميرس، وكراريس وأوراق بالقبطية والكرجية والأرمنية، معظمها في موضوعات دينية، ووجد فيها جذاذات عبرانية وسامرية فيها نسخ من التوراة وتقاويم أعياد السامريين، وصلوات وصكوك للبيع والأوقاف وعهود زواج، وقصائد شعرية من عصر الصليبيين، وعدة نسخ من انجيل برقوق، فأهدى السلطان معظمها لغليوم عاهل ألمانيا، ووزع قسماً منها على حاشيته. وبهذه الطريقة ذهب هذا الكنز العظيم الذي بقي محفوظاً عدة قرون.

أما حرق مكتبات دمشق فأهمها ما حصل في فتنة غازان ٦٩٩ م وفتنة تيمورلنك سنة ٨٠٣ فقد بقيت النار تحرق دور دمشق ومدارسها وجوامعها ثلاثة أيام بلياليها حتى صارت أطلالا بعد ازدهار وجمال، فذهب في هذا الحريق وغيره كتب معظم المدارس وأهمها المدرسة الضيائية والعادلية، فلا تقل كوارث مكتبات دمشق والشام عن غيرها، وورد أنه جمع من الكتب التي نهبها من الشام والعراق غير ما أحرقه أربعمائة ألف مجلد وضعها في مراغة، ومن مصائب مكتبات الشام الحريق المتعدد الذي أصاب مكتبة الجامع الأموي والذي ذهب بها، كما ذهب الحريق بعشرات المكاتب الخاصة الدمشقية، فدمشق كانت متفردة عن باقي المدن بكثرة مدارسها ومساجدها وكلها كانت مليئة بخزائن الكتب المتعددة في فنون مختلفة ولكن كثرة المحن والمصائب التي أصابتها جعلتها أثراً بعد عين.

ولكن عندما أقيمت الجمعية الخيرية في عهد الوالي مدحت باشا أول ما عملته أن قامت بجمع ما أبقت الأيام من الكتب من المكتبات كالقيمرية والخياطين والمرادية وغيرهم وجعلتها في المكتبة الظاهرية وبلغت نحو/ ٤٠٠٠ /مجلد وكان ذلك بتشجيع من الشيخ طاهر الجزائراي ثم ألحقتها الحكومة العربية بالمجمع العلمي، فأضاف إليها من الكتب التي اشتراها والتي أهداها

المتبـرعون وأوقفهـا المحسنون حتى بلغت نحو عـشرين ألـف مجلـد، ولما أقيمت مكتبة الأسد بدمـشق نقـل من الظاهرية المخطوطات والكتب الـنادرة، لـتحفظ في مكان واحد آمن لا تطاله يد العابثيـن مـع باقي المكتبات الأخرى من مختلف المحافظات السورية.

مكتبة أنطاكية:

كـان فـيها خزانة كتب عظيمة وقد ذكر البديعـي في (الصبح المبني) أن أبا العلاء المعري كان يتردد عليها.

مكتبة المعرة:

وهـي خـزانة كتب أبي العلاء المعري، وفـيها نسخة من كتاب الجمهرة وليس في الدنيا مثلها، أخذها أمير حلب ثم ردها إليه.

مكتبات حلب:

كانـت مدينة حلب غاصة بخزائن الكتب التي أنشأها الملوك والسلاطين والأعيان والعلماء، لكـن الفتن ذهبت بأكثرها لا سيما في عهد التتر، ومنها مكتبة الجامع الأموي فقد كان فيها أكثر من ٥٠٠٠ كـتاب، وقد سلب أحد المتنفذين من الترك قـسماً منها وذهب تيمور بالبقية الباقية ثم جددها بعـض الأعـيان سنة ١٣٠٠ هـ فجمع فيها كتباً نفيسة.

وكـان فـي حلب خزانة كتب في الجهة الشرقية ولكنها نهبت، فجددها الوزير هبة الله بن بديـع وزيـر الملـك رضوان وأوقف عليها كتبا جديدة.

وعرفت حلب مكاتبها الخاصة عند الأسر الكبيـرة كمـا ذكر ياقوت في معجمه للأدباء مثل مكتـبة بنـي الشحنة وبني العديم وبني الخشاب، وكـان فـيها مكاتب خاصة بالمدارس الكبرى مثل المدرسـة العـصرونية والحلـوية والـشرقية والرواحية وغيرها..

وكـل هـذه المكاتب درسها تيمور ومحا معالمها، وما سلم منه التقطه الغربيون.

وأنـشئت المكتبات بعد ذلك مثل الأحمدية وكان فيها أكثر من ٣٠٠٠ كتاب والعثمانية وفيها كثير من الكتب النادرة في التاريخ والتفسير وغير ذلـك ونقلت مخطوطاتها إلى مكتبة الأسد بدمشق لـتحفظ فـيها ولـتكون فـي متناول أيد الباحثين والمحققين.

المكاتب في البلاد الأعجمية: وكانت البلاد الأعجمـية مكتظة بخزائن الكتب كباقي البلاد، فقد قال ياقوت الحموي في مرو الشاهجان وقد تركتها أنا سنة ٦١٦هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم أر فـي الدنـيا مـثلها كثرة وجودة، منها خزانة في الجامع يقال لها العزيزية وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها.

وكان في بخارى مكتبة عظيمة لنوح بن منصور.

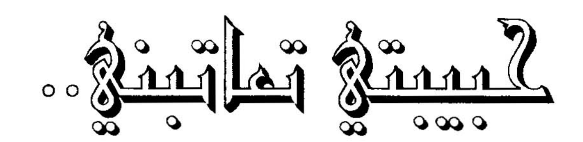
أمـا في مراغة ففيها مكتبة نصير الدين الطوسي التي تحتوي أربعمائة ألف مجلد.

ومكتبة أبي الوفاء بن سلمة كانت عظيمة فـي همـزان، وهي التي استخرج منها أبو تمام كتاب الحماسة والاختيار من أشعار القبائل وكتاب الفحول وغيرها.

وفـي نهايـة المطاف بعد أن تجولنا في بعـض المكتـبات، وعـرفنا الجرائم التي اقترفت بحقها، هذه الجرائم التي تنكرها الإنسانية وتمجها الأخـلاق، ولـم يـبق لنا سوى التحسر على تلك الخـسارة، ومـع ذلك مازال البعض يحصل على مخطـوطات قديمة ويتاجر بها بعد أن يخرجها من موطنها بأسلوب ما، فالجريمة مازالت ترتكب بحق تراثنا، فكم من أديب طمست آثاره الأدبية، وكم من شـاعر أحرقت قصائده، وكم من عالم غاب اسمه فـي طيات المحارق، وكم من عبقري دوّن للأجيال علوم الأوائل فذهبت جهوده طعاما لألسنة اللهب.

وجريمة العبث بالكتاب وإحراق المكتبات واللهـو بمخلفـات الفكـر الإنساني والمتاجرة به جـريمة لا يمكـن تناسـيها، ولا تغتفر، والتاريخ سـيبقى يبـرزها علـى صفحاته.. ولكن بأحرف سوداء.

إنها المكتبات التي شادها علماء بأفكارهم وأقلامهم وأسفارهم وأعمارهم وجوعهم وعطشهم وحبـرهم وسهرهم، وكدّهم ونصبهم، إنهم رحلوا شـرقا وغـربا وسـمعوا وصنفوا وتركوا لنا إرثا عظـيما قـد قذفوه بين أيدينا قطوفا دانية ثمارها طيبة، لنعرف كم ضحوا لأجلنا.. ولكن نال معظمها مـا نالهـا من حرق وإتلاف وغرق ونهب، ولكن بقي الشيء الكثير لنا.. فهل نحافظ على هذا الإرث العظيم؟


حبيبتي تعاتبني..

شعر : أ. عدنان أبو عطا

تــــسائلني وهـــل ماتـــت رؤاكـــا؟!

وهـــل غابـــت طيوفـــي فـــي جفاكـــا؟!

وكـــيف تـــنام لـــيلاً دون قربـــي؟!

وكـــيف يطـــيب مـــن بعـــدي هـــواكا؟!

تقـــول وقـــد هجـــرتَ الحـــيَّ ســـرّاً:

وداعـــا!! والجـــراح جـــرت هـــناكا

ولـــم تُـــشر العـــيون ســـوى دمـــوعٍ

تؤجّجنـــــي وتحملنـــــي وراكـــــا

ورفـــرف قلبـــيَ الـــولهانُ شـــوقاً

وكـــان ضـــحيةً نحـــرت فـــداكا

ولـــم أشـــعر ســـوى أنَـــي حطـــامٌ

وقتلـــي نـــال مـــن وجـــدي رضـــاكا

ورحـــتَ تخـــبّ خطـــوك لا تبالـــي

فكـــيف ومهجتـــي رصـــفت مـــداكا







وعينــــي إذ رعـــــتك وأنـــــتَ ســـــار

وأنفاســــــي تدغــــــدغها لظاكــــــا

وتحـــضنك الـــضلوعُ بكـــلّ شـــوقٍ

وقـــد أبقـــيتَ فـــي نبـــضي دماكـــا

فكـــن مـــا شـــئتَ غـــرّيداً تغنّـــي

فـــإنّ القلـــبَ ردّد مـــا شـــجاكا

فَـــصَرْحي بـــين أنـــداء وطـــيب

وصـــرحك مـــن شـــذا وردي حـــباكا

وســـحري مـــثل نيـــسانٍ تجلّـــى

علـــى روضـــي فلملمـــه ســـناكا

أتذكـــر كـــم وقفـــتَ علـــى دروبـــي؟!

وتطلـــبُ قطـــرةً تـــروي صـــداكا

وكـــم أضـــناك ذلٌّ وانكـــسارٌ

وقلبـــي إذ يمـــزّقه.. بكاكـــا

ولـــم تـــرحم بـــنات الحـــيّ.. عـــوداً

ســـوى أنّـــي حـــبوتك مـــا شـــفاكا

وأجلـــس قـــرب نافذتـــي بـــصفّي

وتـــشغلني إذا خطـــرت خُطاكـــا

تؤنّبنـــي مدرّســـتي.. كثيـــراً

لِمـــا أبـــدي بحـــصّتها ارتـــباكا

وإن غـــبتَ الثوانـــي عـــن عيونـــي

أُفكّـــرُ بالـــذي عنّـــي ثـــناكا

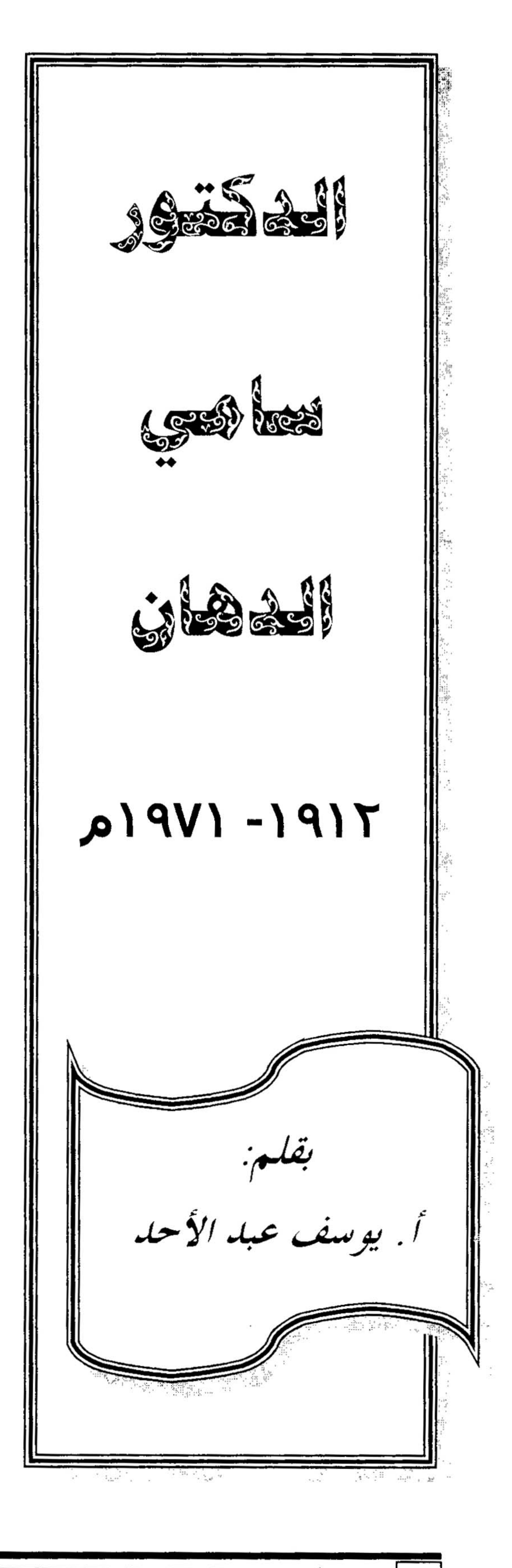






وتحمـــل غيرتـــي روحـــي وتلقـــي
بهـــا فـــي قعـــر ظنّـــي مـــن هـــواكا
ومـــازال الـــتأوّه فـــي ضـــلوعي
لهيـــباً أســـتبيح بـــه.. حماكـــا
وأفـــتعلُ الخـــروج لـــيّ درب
لعلّـــي فـــي مـــشاويري أراكـــا
تـــبثّ الـــوجد للأزهـــار دمعـــا
وللأطـــيار تُفـــضي مـــا عـــراكا
وجـــئت الـــيوم تهجرنـــي لأنّـــي
طلـــبت بـــأن تلملمنـــي يـــداكا
ورحـــت لـــتخدعنّ الغـــيد مثلـــي
وتنـــصب مـــا اســـتطعت لهـــا شـــباكا
تـــريّث قـــد شـــكوتُ جـــراح قلبـــي
لكـــلّ الأرض، فانتـــبذت جـــناكا
تـــريّث لـــن تـــصيدَ ســـوى نـــسيم
كـــضوء البـــرق يفلـــتُ مـــن عـــراكا
فغـــبْ مـــا شـــئت إنّ الـــنأيَ نـــارٌ
وإنّ الجمـــر فـــي دمعـــي كـــواكا
فلـــن تقـــوى علـــى الهجـــران يـــوما
فأيكـــك فـــي الحـــنايا قـــد حـــداكا
وإنّـــي مـــثلما ودّعـــت حُبّـــي
وأحلامـــي فلـــن ترضـــى ســـواكا
ســـتلقاني ولـــو نـــاءٍ.. نعانـــي
وضـــمّ رفاتـــي الولهـــى ثـــراكا
ســـتلقاني كمـــا العـــذريّ أضحـــى!
قتـــيلاً فـــي الفـــلاة.. لكـــنتُ ذاكـــا



الدكتور سامي الدهان ١٩١٢- ١٩٧١م

بقلم: أ. يوسف عبد الأحد

سامي الدهان أديب وباحث ومدقق وناقد أدبي سوري، حقق طائفة من كتب التراث العربي وعضو في مجمع اللغة العربية بدمشق.

ولد في حلب في ٩ نيسان ١٩١٢ وتلقى دراسته الابتدائية في المدرسة الفاروقية وهي مدرسة أهلية ابتدائية وثانوية، ثم تابع دراسته في مدرسة التجهيز وكانت تعرف آنذاك بمدرسة السلطان حيث أكمل دراسته فيها وأتقن اللغتين العربية والفرنسية.

وفي هذه المدرسة تفتحت موهبته على الترجمة فأخذ يترجم وينشر مقالاته في الصحف والمجلات، وأول مقالة نشرها في مجلة (الضاد) الحلبية سنة ١٩٣١ بعنوان (لست أخشى الشيخوخة) للشاعر الفرنسي الكبير فيكتور هيجو، ونشر في نفس العام مقالاً بعنوان (نابليون الثاني) واستمر في نشر ترجماته لعدد من شعراء فرنسا: لامارتين وده فيني والفرد دي موسيه وفاليري وبورجيه وغيرهم.

وفي أثناء الدراسة أصدر كتابين الأول (قواعد الإملاء) ويقع في جزءين صغيرين وطبع عام ١٩٣٦ ثم ترجم كتابا بعنوان (البيداغوجيا) أصول التدريس الحديث وطبق فيه دروس اللغة العربية مثلما طبقه الغربيون على لغاتهم وكتب مقدمته الشيخ بدر الدين النعساني عضو مجمع اللغة العربية بدمشق وصدره بقصيدة الشاعر الكبير عمر أبو ريشة.

كان يتقن اللغة الفرنسية وهذا ما أتاح له فرصة الاشتراك في مسابقة أعلنت عنها الحكومة السورية عام ١٩٣٧ لدراسة الأدب العربي في جامعة السوربون في فرنسا فنجح بتفوق وهناك تابع محاضرات المستشرقين: غودفروا ووليم مارسيه ولويس ماسينيون وجان سوفاجيه وهنري مارسيه وغيرهم، وحصل على الليسانس في الآداب بعد ثلاث سنوات.

ثم أخذ بتحضير رسالة دكتوراه عن أبي فراس الحمداني شعره وحياته، واتصل مع بعض المستشرقين من أساتذة السوربون للبحث عن مخطوطات الديوان فحصل خلال بحثه على أربعين نسخة وأخذ يقابلها ويستخرج أصلها الصحيح فوجد قصائد عديدة كانت مفقودة فضمها إلى شعر أبي فراس.

وفي عام ١٩٤٠ عندما نشبت الحرب العالمية الثانية عاد إلى حلب وتعاقد مع المعهد العلماني الفرنسي (اللاييك) ودرّس الأدب العربي مدة خمس سنوات وفي نفس الوقت كان يتابع جمع شعر أبي فراس الحمداني.

عاد إلى باريس بعد أن وضعت الحرب أوزارها وتقدم إلى امتحان المدرسة العليا للدراسات اللغوية والتاريخية فنال الدبلوم منها وبعدها تقدم إلى مناقشة الدكتوراه بدراسة بالفرنسية عن أبي فراس الحمداني فنال دكتوراه دولة بدرجة مشرف جداً وكان ذلك في عام ١٩٤٦.

عاد إلى دمشق وانتدب بقرار جمهوري عضواً في المعهد الفرنسي للدراسات العربية التابع لجامعة السوربون في باريس فانصرف في هذا المعهد إلى تحقيق طائفة من كتب التراث الأدبي وحقق الكتب التالية:

١- ديوان الوأ واء الدمشقي.
٢- زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم.
٣- طبقات الحنابلة لابن رجب.
٤- الأعلاق الخطيرة لابن شداد.
٥- رسالة ابن فضلان.
٦- كتاب السياسة للوزير المغربي.
٧- التحف والهدايا للخالديين.
٨- شرح ديوان صريع الغواني.
٩- وديوان أبي فراس الحمداني جاء في ثلاثة مجلدات بلغ عدد صفحاته ٨٢٥ صفحة.

أعجبت هذه التحقيقات العلمية الهامة التي أنجزها مجمع اللغة العربية بدمشق فانتخب عضواً عاملا فيه بتاريخ ٧ شباط ١٩٥٣.

ذاعت شهرة سامي الدهان كباحث قدير ومحقق وأديب ومحاضر ومترجم ففي عام ١٩٥٤ دعته جامعات الولايات المتحدة الأمريكية لزيارتها واختاره مجمع اللغة العربية بدمشق في الوفد الرسمي لزيارة أكاديمية العلوم والآداب السوفيتيية فقضى فيها شهراً واحداً متنقلاً بين موسكو ولينينغراد وستالينغراد وأوزبكستان وطشقند وسمرقند للبحث عن المخطوطات، واشترك في مؤتمرات أدبية ومهرجانات شعرية.. وتتالت رحلاته إلى استنبول وبغداد والنجف والقاهرة والمغرب وانكلترة وهولندة والدانمارك والنمسا وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا وإسبانيا وبلجيكا بحثا عن المخطوطات العربية وتصويرها ودراساتها.

وفي عام ١٩٥٨ عيّن الدكتور سامي الدهان عضوا في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ثم انتخب مقرراً للجنة النثر.

وفي ٢٤ كانون الأول ١٩٦٠ اختاره المجمع العلمي العراقي عضوا مراسلا له.

كما وأنه حضر مؤتمرات المستشرقين في كل من بروكسل وتركيا وكمبردج وباريس وميونخ وكانت له صلات وثيقة بعدد من المستشرقين مثل هنري لاوست وبروكلمان وبرنارد لويس وغيرهم.

وشارك في مؤتمرات الأدب العربي في بلودان والقاهرة والكويت وحاضر في مهرجانات الأخطل الصغير والكواكبي والزهراوي ومؤتمر التاريخ الإسلامي في لندن وكان محاضراً زائراً في المغرب العربي ثم أستاذاً في جامعة الرباط بين عامي ١٩٦٣-١٩٦٥ وفي الجامعة الأردنية بين عامي ١٩٦٥-١٩٦٩.

إضافة إلى تحقيقاته العلمية قام بدراسات أدبية لشعراء وأدباء عرب ومن أهم كتبه (الشعراء الأعلام في سورية) اختار فيه ستة شعراء يمثلون صورة الشعر المعاصر في

سورية تناول فيه دراسات عن شعرهم وسير حياتهم ومختارات من أعمالهم أمثال: محمد البزم، خليل مردم بك، خير الدين الزركلي، بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد)، شفيق جبري وعمر أبو ريشة.

وفي آذار ١٩٦٩ أصيب الدكتور سامي الدهان بمرض وذلك من جراء الجهود الكبيرة في السفر والبحث والتنقيب والتحقيق في صحة المخطوطات فسافر إلى فرنسا طلبا للعلاج ولكن بلا جدوى، عاد إلى دمشق فوافته المنية في ٢٠ تموز ١٩٧١ ونقل جثمانه في اليوم التالي إلى حلب ودفن فيها.

كتب الدكتور سامي الدهان

- تحقيق وتعليق:

١- ديوان أبي فراس الحمداني - ثلاثة أجزاء - بيروت ١٩٤٤.
٢- كتاب في السياسة للوزير المغربي - بيروت ١٩٤٨.
٣- ديوان الوأواء الدمشقي - دمشق ١٩٥٠.
٤- زبدة الحلب في تاريخ حلب - ج ١ - بيروت ١٩٥١.
٥- طبقات الحنابلة لابن رجب - ج١ - بيروت ١٩٥١.
٦- زبدة الحلب من تاريخ حلب - ج٢ - بيروت ١٩٥٤.
٧- الأعلاق الخطيرة (تاريخ دمشق) ج٢ - بيروت ١٩٥٦.
٨- التحف والهدايا للخالديين - القاهرة ١٩٥٦.
٩- شرح ديوان صريع الغواني (مسلم بن الوليد) القاهرة ١٩٥٨.
١٠- رسالة ابن فضلان - دمشق ١٩٦٠.
١١- الأعلاق الخطيرة (قسم لبنان وفلسطين) ج٣ - بيروت ١٩٦٢.
١٢- زبدة الحلب من تاريخ حلب - ج٣ - بيروت ١٩٦٨.

- تأليف:

١- محمد كرد علي، حياته وآثاره - دمشق ١٩٥٥.
٢- شاعر الشعب حافظ إبراهيم - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٥٥.
٣- الغزل - من فنون الأدب جزءان - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٥٤.
٤- الوصف - من فنون الأدب - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٥٦.
٥- المديح - من فنون الأدب - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٥٧.
٦- الهجاء - من فنون الأدب - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٥٨.
٧- عبد الرحمن الكواكبي (نوابغ الفكر) دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٥٨.
٨- شكيب أرسلان - (محاضرات) المعهد العالي بمصر - القاهرة ١٩٥٨.
٩- جان جاك روسو - دار المعارف بمصر (سلسلة اقرأ) - القاهرة ١٩٥٩.
١٠- الأمير شكيب أرسلان (حياته وآثاره) دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٠.
١١- الشعر الحديث في الإقليم السوري - المعهد العالي بمصر - القاهرة ١٩٦٠.
١٢- الناصر صلاح الدين الأيوبي - دار المعارف بمصر (سلسلة اقرأ) - القاهرة ١٩٦٠.
١٣- قدماء ومعاصرون - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦١.
١٤- المرجع في تدريس اللغة العربية - مكتبة أطلس - دمشق ١٩٦٣.
١٥- درب الشوك - مكتبة صادر - بيروت ١٩٦٩.
١٦- الشعراء الأعلام في سورية - دار الأنوار - بيروت ١٩٦٨.






في محراب الحب..

شعر: م. عبد الرحيم ضميرية

خـــذي مــا تــشائين مــن حياتــي بقـبلة
أمـــرغ فـــيها عـــند أعـــتابك الثغـــرا
خـــذي النور من عيني خذي اللون من دمي
خـــذي الأمـــس والآتي.. خذي القلب والفكرا
خـــذي يـــا ملاكـــي.. مـــا تـــشائين كلـــه
خـــذي العمـــر والأفـــراح والحـــب والشعرا
لعيـنـــيك كرمـــى كـــلّ مـــا أســـتطيعه
ولـــو فـــارق المألـــوف أو جـــاوز القبـــرا
لعينـــيك.. يـــا عينـــيك بحـــرا مدامـــة
وبـــدرانٍ فـــي دنـــيا الغـــرام لمن أسرى...
ســـأكتب بالأهـــداب.. والحبـــر لهفتـــي
قـــصائد عـــن عينـــيك أدنـــي بها الشعرى*
وأدنـــي بهـــا مـــن كـــل حـــب حبيـــبه
وأبكـــي بهـــا العـــشاق.. ألغـــي بها الهجرا







وأبـــري بهـــا المكلـــوم أعـــياه حـــبه

وأطفـــي بهـــا غلـــواء مـــن فقـــد الـــصبرا

*　　　*　　　*

عـــشقتك فـــي نيـــسان مـــذ كـــنت طفلـــة

فـــيا طيـــبه نيـــسان.. يـــا طيـــبها الذكـــرى

ويـــا طيـــبه يـــوم بـــه لامـــست يـــدي

يـــديها وعينـــي قـــبلت قبلـــيَ الـــشعرا

غـــداة بـــدت هـــيفاء يـــسبق عطـــرها

إليـــنا خطاَهـــا.. والـــسنا يـــسبق العطـــرا

مـــوردة الخـــدين خمـــرية اللمـــى

إذا ابتـــسمت شـــهداً.. وإن نطقـــت خمـــرا

وإن خطـــرت فالحـــور يغفـــو بظلهـــا

وإن نظـــرت أردت فلـــيس لهـــا أســـرى

تَـــدلُّ علـــى كـــل النـــساء بخـــصرها

وإن لهـــا مـــن جـــيدها آيـــة كبـــرى

تعهـــدها بالحـــسن ربـــي وزانهـــا

إلـــى حـــسنها - طهـــراً - فكنى بها الطِّهرا

*　　　*　　　*

تطهـــرت مـــن حبـــي ســـواها وجئـــتها

أقـــرِّب فـــي محـــرابها الدمـــع والعـــذرا

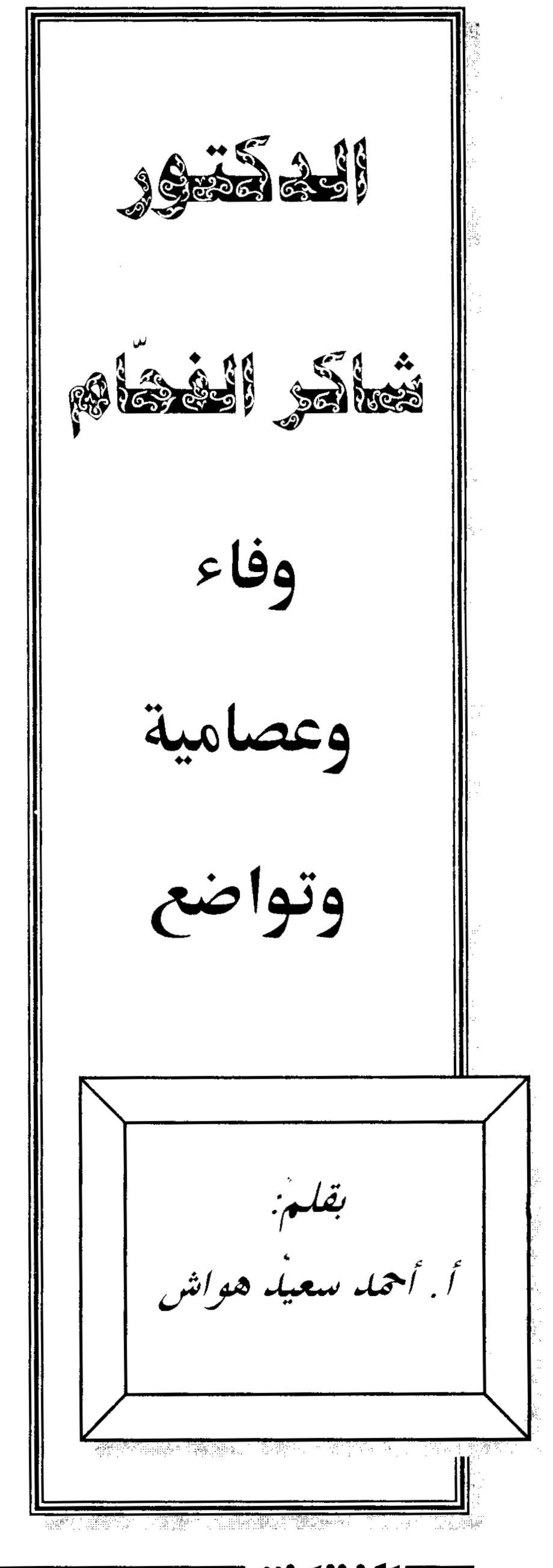
فـــإن قـــبلت منـــي فعـــبد لهـــا أنـــا

وإن طـــردت.. فالمـــوت والنار.. بي أحرى

---

* الشعرى: النجم المعروف.



الدكتور شاكر الفحّام وفاء وعصامية وتواضع

بقلم: أ. أحمد سعيد هواش

في أمسية خريفية ندية من أمسيات الفيحاء سعد جمهور المثقفين وعشاق الإبداع والمبدعين من أبناء العروبة والإسلام والعالم بتكريم علم مبدع أمضى عمره في طلب العلم والتعليم والتأليف والتحقيق لكتب التراث العربي المجيد، إنه العالم الفاضل الدكتور شاكر الفحّام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق.

وإنها لبادرة حسنة ومكرمة خيّرة أن تكرم الأمة العربية المبدعين من أبنائها البررة وهم أحياء ليروا ويسمعوا ويسعدوا برد الجميل من طلابهم وأصدقائهم وأحبائهم.. وهذه المكرمة التي دعا إليها الأمين العام لاتحاد الكتاب العرب الدكتور علي عقلة عرسان لتكريم رجل علم كرّم في أكثر من بلد عربي تقديرا لعطائه المميز وخدمته للغة العربية وحفاظه على تراثنا المجيد، الدكتور شاكر الفحام. هي إحياء وتجديد لمأثرة كريمة من تراثنا الأدبي العربي، فقد كانت القبائل العربية تحتفل بنبوغ الشاعر من أبنائها، فتتلقى التهاني من القبائل الأخرى، وتقام الولائم وتنشد الأشعار.

وقد ألقى لفيف من الأدباء الكبار والأصدقاء الأوفياء للمكرّم الدكتور شاكر الفحّام كلمات تدل على مكانة المكرّم الأدبية والوطنية وما قدمه لأمته العربية وأبنائها في حقلي التعليم وتحقيق الدرر من تراث الأجداد وحفاظه على اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، برعايته لأمانة مجمع اللغة العربية بدمشق، ورفع صوته عاليا في المؤتمرات التي يدعو إليها اتحاد مجامع اللغة العربية للرد على استخدام العامية بدلا من اللغة العربية الفصحى في مرافق الحياة كافة، وعلى من يدعو إليها.

وقد أفاض الخطباء الكرام في مآثر المكرَم، نوّهوا بأكثر جوانب حياته الغنية أدبا، وسيرة ومنهجا وسلوكا يحتذى به..

وأنى لهذا القلم المتواضع أن يغامر ويدخل حلبة فرسان الكلمة الذين صفق لهم الحشد الكبير ممن حضروا الحفل التكريمي المميز لرجل مميز وذلك في مساء السابع من

أيلول لعام ٢٠٠٣ بمكتبة الأسد الوطنية بدمشق الفيحاء.. لقد لاحظت لدى استماعي للكلمات البليغة التي قالها الخطباء الأوفياء أنّ بعضاً من جوانب شخصية عالمنا المكرّم الدكتور شاكر الفحّام لم تسلط عليها الأضواء بصورة كافية في ذلك الاحتفال التكريمي الكبير.

لذا سأحاول القيام بهذه المهمة معتمداً على قراءتي لبعض مقالات عالمنا المكرّم، وعلى ما سمعته من الأصدقاء، ومن خلال زياراتي له في مجمع الخالدين، مجمع اللغة العربية بدمشق..

لقد اختصرت ذلك في كلمات ثلاث: الدكتور شاكر الفحّام.. وفاء، وعصامية، وتواضع، أما وفاء الدكتور شاكر الفحّام فأكثر ما يتمثل في وفائه لأساتذته الذين نهل من علمهم الغزير، وبفضلهم وصل إلى ما وصل إليه.. وكذلك لزملائه الراحلين.

لنقرأ ما كتبه المكرّم الفاضل عن أساتذته في مدينة حمص الذين تربى على أيديهم في المرحلة الابتدائية إذ قال:

قسم لي أن تكون دراستي الابتدائية في مدرسة (التطبيقات النموذجية) بمدينتنا – حمص – .. ثم يقول: وها هم أولاء معلموها البررة يسعون خفافاً يملأ النشاط جسومهم، وتفيض بالمحبة والإخلاص قلوبهم، يتراءون أمامي لا يفوتني اسم واحد منهم، ولا تكاد تند عني لمحة من ملامحهم. وها أنا ذا أتمثل مديرها الأستاذ نور الدين القواس، بطلعته المهيبة، وقامته الممشوقة المنتصبة، يشرف على أمور المدرسة الإشراف الدقيق بهمة لا تعرف الكلال وعزم لا يعتريه فتور، ويتابع الدكتور شاكر الفحّام ذكر فضل أساتذته فيقول: ".. وملأنا الفرح حين ندب لتعليمنا مدرسٌ، شهر بتفوقه في الحساب والهندسة والعربية، وعُرف بإخلاصه واندفاعه في تعليم طلابه والإشراف عليهم، يلازمهم صباح مساء، ويتعرف أحوالهم في مدرستهم وفي منازلهم، إنه الأستاذ عبد الكريم الصافي. واستقبلناه بحماسة وحب لا حدود لهما..".

أما وفاء الدكتور شاكر الفحام لأساتذته في المرحلة الثانوية فاكثر ما يتجلى في حبه وتقديره لأستاذ جليل هو: عز الدين التنوخي، المجاهد، المربي، الشاعر عضو مجمع اللغة العربية بدمشق..

وأذكر أني كنت بصدد إعداد مقال عن المربي الباحث عز الدين التنوخي وسألت الدكتور عنه، فأفاض بالحديث عن مآثره الحميدة وفضله عليه وعلى زملائه الطلاب في مدينة – حمص – مما شجعني على جمع بعض قصائده التي تناثرت في الدوريات العربية.. مثل مجلة الرسالة التي كان يصدرها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات، ومجلة الزهراء التي كان يصدرها المجاهد محب الدين الخطيب بالقاهرة.

وأقوم بالتفتيش عن مصادر لإغناء الموضوع، فأجد بين كتبي عددا من مجلة (مجمع اللغة العربية بدمشق) يحوي دراسة قيمة عن العلاّمة الهندي: عبد العزيز الميمني الراجكوتي رحمه الله كتبه الدكتور شاكر الفحّام، وفيه أتى على ذكر الأستاذ الجليل أبي قيس عز الدين التنوخي، فقال:

".. وأستميح قارئي العذر لأقف قليلاً، أستحضر شآبيب الرحمة لأستاذي الجليل أبي قيس عز الدين التنوخي، الذي قرأنا عليه طلاباً في الثانوية بمدينة – حمص – ثلاث سنوات مدرسية (كانون الأول ١٩٣٧ – أيار ١٩٣٩م) كانت متعة النفس، وماتزال ذكراها غضة ناضرة، فقد شحذ منا العزم، وحرك الهمم، وابتعث فينا الحميّة وأخذ بيدنا يفتح لنا مغالق التراث، ويدور بنا في رياض الكتب، يدلنا على ما فيها من النفائس والتحف".

أما وفاءه لرفاق الحرف والدراسة والتعليم فيتجلى في كلماته الزاخرة بالمعاني العظيمة عن هؤلاء الأعلام، وخاصة الراحلين، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر كلمة الدكتور – شاكر الفحّام – رئيس مجمع اللغة العربية في حفل تأبين فقيد المجمع الأستاذ الدكتور محمد بديع الكسم الذي جرى مساء

يوم الإثنين الواقع في ١٣ تشرين الثاني ٢٠٠٠م في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، ومما قاله:

".. وظل يعمل ويدأب في الجامعة، لا يملُّ ولا يسأمُ، وتخرجت به أجيال وأجيالٌ من الطلاب رأوا فيه الأستاذ المثالي القدوة، الذي أعطى بغير حساب.."

ومما جاء في كلمة الدكتور شاكر الفحّام، رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق، في الحفل التأبيني الذي أقامه مجمع اللغة العربية للفقيد المربي الكبير الدكتور أمجد الطرابلسي، مساء الأربعاء الواقع في ١٤ آذار ٢٠٠١م في قاعة المحاضرات بمجمع اللغة العربية إذ قال: ".. وبعد، فما زالت صُورتك أمامي أيها الأستاذ الجليل، وأنت تحدثني - وقد لقيتك في المغرب - عن الحزن الشديد الذي حرّ بك على وفاة صديقك الأعز الدكتور حكمة هاشم، وتنشدني قصيدتك على قبره، وتذكر الغربة القاسية القاتلة التي شملتكما معا، وكأنك توحي ليّ أن قدركما واحد، وأن مصيرك مصيره".

إنه الوفاء، القاسم المشترك الذي يتحلى به رؤساء وأعضاء مجمع الخالدين.

أما عصامية الدكتور شاكر الفحّام فتتمثل بسيرة حياته وما وصل إليه من مجد رفيع تدرّج على طريقه خطوة خطوة..

فقد وُلد الدكتور شاكر الفحّام بمدينة - حمص - في سنة ١٩٢١م، لأسرة كريمة عرفت بتدينها، وقد رحل والده مبكراً، وهو لا يزال على مقاعد الدراسة في المرحلة الابتدائية، فكفلته والدته ورعته وشجعته على متابعة الدراسة فنال الشهادتين الابتدائية والإعدادية وبعض الثانوية في مدارس حمص الرسمية، ثم تحوّل إلى دمشق ليستكمل الدراسة الثانوية فيها، ثم أوفد إلى القاهرة لدراسة الأدب في جامعتها، وحصل على إجازة الليسانس في الآداب العربية من كلية الآداب جامعة القاهرة بتقدير جيد جداً سنة ١٩٤٦م، ثم عاد إلى الشام، وقام بتدريس العربية في ثانويات دمشق وحمص والحسكة، ثم عاد مرة أخرى إلى القاهرة عام ١٩٥٧م لاستكمال دراسته الجامعية، فاختار شاعرين هما: بشار والفرزدق موضوعا لرسالتي الماجستير والدكتوراه، وبعد عودته من القاهرة عام ١٩٦٣م سمي مدرساً للعربية في كلية الآداب بجامعة دمشق. ولن أسترسل بذكر المناصب والمهام التي قام بها الدكتور شاكر الفحّام، فقد ذكرها الخطباء، وإنما أكتفي بذكر قبسات منها:

١- لا بد من ذكر الجهد الشخصي والعصامية التي كانت وراء وصول الدكتور شاكر الفحّام لقمة المراحل التعليمية ضمن ظروف مادية صعبة مع فقدان المعيل، بالإضافة لما كانت فيه الأمة العربية بعامة والقطر السوري بخاصة من انتداب فرنسي كان همه حرمان أبناء القطر السوري من التعليم والسفر للخارج إلا لدولته (فرنسا).

٢- لا بد من ذكر الدور الوطني والقومي للدكتور شاكر الفحّام الذي تمثل بنشاطه السياسي أثناء الدراسة والدعوة لوحدة الأمة العربية وخاصة أثناء وجوده بالقطر المصري الشقيق قبل ثورة تموز (يوليو) ١٩٥٢م، وذلك مع زملائه: عبد الكريم زهور، سامي الدروبي، بديع الكسم، عطا الله المغامس، عبد الله عبد الدايم وغيرهم، وكذلك تمثل بنشاطه في تسيير حركة التعريب بالقطر الجزائري الشقيق عندما كان سفيراً للقطر العربي السوري بالجزائر، مما وطّد العلاقة الطيبة بين القطرين الشقيقين.

٣- وفي القطر العربي السوري تمثل دور الدكتور شاكر الفحّام بتخريج آلاف الطلاب العرب على يديه في المرحلتين الثانوية والجامعية: ولا يُنسى دوره في رفع مستوى التعليم عندما كان وزيراً للتربية والتعليم العالي.

٤- إن عمل الدكتور شاكر الفحّام بالموسوعة العربية السورية لا يخفى على كل ذي بصيرة.

٥- وإن ما قام به الدكتور شاكر الفحّام من أعمال جمّة في مجمع اللغة العربية

وإشـرافه على مجلته الغرّاء التي تعتبر بحق مـن أهم المراجع التراثية في مكتبتنا العربية؛ بالإضافة لعشرات المقالات التي كتبها ونشرها في الدوريات العربية والمحلية.

ومـن هـذا المنطلق استحق الدكتور شـاكر الفحّـام الفوز بجائزة الملك فيصل التي نالها مناصفة مع الدكتور يوسف خليف.

وبمناسـبة فوز الدكتور شاكر الفحّام بجائزة الملك فيصل هذه، أقيم له حفل تكريميّ في جُدّة (المملكة العربية السعودية)، وقد ألقى عـددٌ من الخطباء العرب كلمات تشيد بالمكرّم الدكتور شاكر الفحّام، نقتطف أسطراً من الكلمة الجامعـة التي ألقاها الدكتور عز الدين البدوي الـنجار إذ قـال معدداً بعض المناصب العلمية التي يشغلها الدكتور شاكر الفحّام:

".. وهـو عـضوٌ مجامـع القاهرة، وبغـداد، وعمـان، والمغرب، والهند، والأمين العـام المساعد لاتحاد المجامع اللغوية العلمية العـربية، وعضو مجلس الأمناء لمعهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت، وعضو المجلـس الاسـتـشاري لمعهـد المخطـوطات العربية بالقاهرة، وهيئة الموسوعة الفلسطينية بدمشق..

ثـم يـتابع الدكتور عز الدين البدوي الـنجار كلمته ذاكراً ما يتمتع به الدكتور شاكر الفحّـام مـن حـب للعلـم ورعاية للمتعلمين وتشجيعه للدارسين، ودماثة الخلق فيقول:

".. للعلـم في قلبه بشاشة، وتأخذه له قارئاً أو مستمعاً هزّةُ طرب، تعْدي من يشهدها ويـشهده، فإذا هو محبٌ للعلم كحبه، شريك له فـي ابـتهاجه به، وبالغت الأيام والتجارب في إرهـاف قلـبه، فأوى إليه من شباب الباحثين غيـرُ قلـيل، يلتمـسون عنده الرِّفدَ والمعونة والتوجـيه، فرّق عليه بمعاني نفسه، وبإقبالهم عليه، وأنشأت له الرقة زمناً آخر على هامش زمـنه الضيق إلى أقصى حد، فوسع ما أمّلوه عـنده، وقدّم لأعمال طائفة منهم بمقدمات فيها من علمه وعطفه وتوجيهه:

حمّالُ أثقـالِ أهلِ الـودِّ آونـةً
أعطيهمُ الجهدَ مني بَلْهَ ما أسعُ

وأسـتبيح لنفـسي بـأن أدعـم كلام الدكـتور عز الدين البدوي النجار بوقائع حيّة فأقول: ما دخلت يوماً على مكتب الدكتور شاكر الفحّـام إلا ووجـدت أمامـه كـتابا يقرأ فيه، ويفاجـئك بمـا كـنت قد كتبته في الدوريات، ويثني عليك ويشجعك.

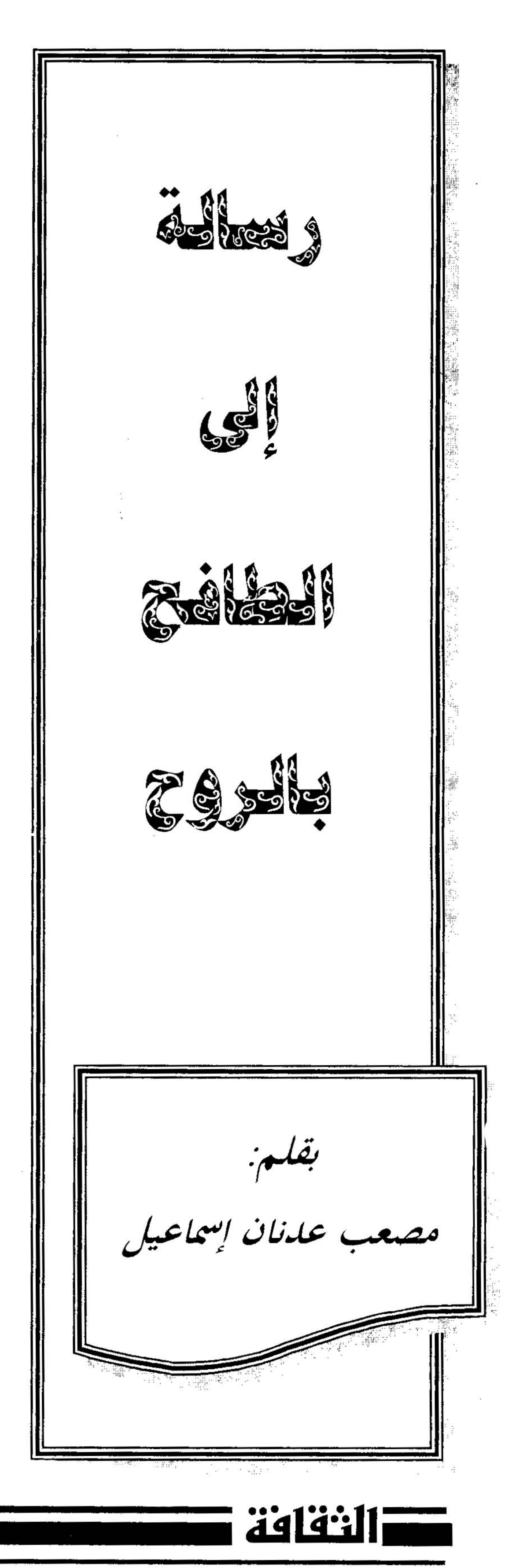
وكثيرا ما يترك طاولة مكتبه ويجلس مقـابلاً لك باشاً مرحبا مشجعاً على طلب كتاب أو مرجع أنت في حاجة ماسة إليه، فيطلب من أمـين مكتبة مجمع اللغة العربية إحضاره، فإن لم يجد الكتاب أوصى بشرائه. وبهذه المناسبة لا بد من ذكر ما يتمتع به الدكتور شاكر الفحّام من لباقة وتهذيب جم وملاطفة لمحبي العلم..

فقد كنتُ أقوم بتحضير بعض الأبحاث الأدبـية عـن شعراء سوريين من المعاصرين وكـان بعض هذه الأبحاث يعرض على الدكتور شـاكر الفحّام لتدقيقه وتصويب ما يقع فيه من أخطـاء.. وفـي نهايـة كل بحث يقوم المدقق بكـتابة تقريـر عن نتيجة عمله سلباً وإيجابا، كانـت ملاحظات الدكتور المدقق السلبية بغاية اللطافة، والإيجابية بغاية التشجيع، كل هذا هو لا يعرف شخصي..

وأردت أن أعبـر لـه عـن شـكري ومودتي، فاستأذنت بالدخول على مكتبه الرحب الـذي تـزينه خزائن الكتب، فاستقبلني أحسن اسـتقبال، مثنـياً ومـشجعاً على متابعة كتابة أمـثال هـذه الأبحاث المفيدة الغنية بالمراجع. وصرت أزور الدكتور شاكر الفحّام كلما سنحت الفـرص، وكـان يـسمعني من كلمات الثناء والتشجيع ما لا أستطيع ذكره.

كـم نعمـةٍ منك تَسَـرْبلْتها
كأنهـا طُـرة بُـرد قشيب
من اللواتي إنْ ونى شـاكرٌ
قامت لمُسْديها مقام الخطيب

مـدَّ الله بعمـر أستاذنا الكبير العلامة الدكتور شاكر الفحّام وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطـنه، ومـتّعه بدوام الصحة والعافية، إنه سميع مجيب.



عمّـــي أبو مضر أيها الحبيب الراحل: لمـــاذا رحلت الآن. الآن بالذات..؟ وتركت آل إسماعيل معصورين كالعنقود، نسفح دمعنا في خابـــية الأحزان؟ فهل بقيت قطرة دمع واحدة في الآماق، لم تزرفْها نساء آل إسماعيل؟

وهـــل بقـــيت آهـــة حزن واحدة في الأعماق لم تتفجّر في قلوب آل إسماعيل، وهم يحملون نعشك على رؤوس راحاتهم؟

وهـــل كانت آهة مضر وكل الآهات إلاّ تبكّـــي حتـــى أوراق الـــشجر؟ وأنا؟ هل أنا إلاّ واحـــدٌ من آل إسماعيل؟ حزنهم كحزني، وإن كـــان حزنـــي علـــيك كفوّهة بركان ملتهب لا ينطفـــئ أبداً. لأنك في نظري، وكذلك في نظر الجمـــيع، لست واحد ولا مئة، بل أنت الألوف التي رحلت برحيلك.

هكـــذا كـــنت أراك قبل أن ترحل عنّا، وهكذا رأيتك اليوم، وهكذا سأبقى أراك. فالنجمُ المشعُ الذي كنت أراه أمامي كل صباح..

اليوم أبحث عنه، فبالله قل لي: كم من نجمٍ سيمرق من أمامي، وهل ستكون كلّها غير انعكـــاس وجهـــك الحبيب، وغير حنيني إليك؟ وغير أملي أنني سأرحل إليك، ذات يوم، تاركا بقـــية أحزانـــي خلف الباب؟ نعم سأرحل إليك، رغم كل شيء، لكن قبل ذلك، سأكتب لك أشياء أحـــبها أنا، قصائد رثاء، سألقيها لوحدي على جـــثمانك الطاهـــر، ولـــسوف أصرخ في وجه الـــسماء الـــزرقاء – عبـــر ضوضـــاء الموت والحزن – بكل ما سأرثيك به. سأقول لك فيها:

إنّـــي أحبك يا عمي، وأحب كل الناس كرْمى لحبّك..

فهل اطمأنّت روحك الآن؟

عمي الحبيب: كلّما غاب قمر. وأشرقت شمسٌ تولد شعلة جديدة، وتنطفئ شعلة، فإذا كان الموت قد أطفأ شعلة الحياة في رحيل عمي وائل فها هي ألوف العيون تذوب شموعاً مضيئة حول الشعلة المنطفئة، ولن تستطيع جراح البحر أن تندّي لهب الأحزان، فالنحيب حول نعشك الطاهر طيوراً أجفلتها الريح. قصّف ريشها البرد. وتنهمر الدموع شظايا زجاج في العيون. رصاصاً في جحيم الصدور، تفجّر الشهيق والآهات، فالجميع يبكون، ينتحبون: لأنك أعطيتهم في سنوات القحط طعامك.. لأنك أرخيت فوق أجساد العرايا كساءك.. لأنك كنت أباً لليتامى، وملاذاً للمحتاجين.. لأنك كنت الأخ والصديق والصاحب. أعطيتهم الابتسامة الصافية والصدق والوفاء، فساروا خلف نعشك كما يسيرون خلف أب وأخ وحميم، فكبرت فيهم، وكبروا فيك حيث أعلنت – بالموت – أنك لشعبك تعطي انتماءك.

حتى رحيلك – يا عمي الحبيب – كان كبيراً وعظيماً. لأنك رحلت منتصراً على المواقف، ولذلك ستبقى فارس المواقف. تعلّمنا – في رحيلك – كما علّمتنا – في حياتك – تمنحنا مصابيح الأمل لندحر ظلمات الجنائز، ونرتقي فوق الأحزان.

تسحبنا خلفك تفتحُ عقولنا على مداها لتعرّفنا كيف تكون وقفة الرجل.

نعم وحدها الريح تدري حكايا الدموع المحترقة في ظلمات الجنائز، وحدها يا عروس الجنائز الراحلة دون وداع، ووحدنا نحن أبناء إسماعيل، وأبناء القرى، وليس وحدي فحسب، سنكون يا عروس الجنائز حبر الحداد.

عمي الحبيب وائل، كم عذبني رحيلك.. إلى متى سأزرع الدروب والشوارع بدموعي المحترقة، فأرجوك دلّني كيف أرحل إليك قبل أن تبيَض عيناي فأنا أريد أن أراك.

عمي.. أشعر بأنفاسي المحترقة كأنها توجعات ناي من قصب ينفخ فيه مشرد فقير. أشعر أن داخلي صار فارغاً مثل المغارة. عدتُ لا أملك حتى صوتي. حتى ذاكرتي أكاد أفقدها. عدتُ أتدحرج في دوامة ما قبل الأمس. والأمس، واليوم كأنّ ريحا هوجاء تشيلني وتحطّني. حاملا في رئتيّ، وملء عروقي، كل أحزان البشر فها هنا تسحقني وتذيبني ذكريات الأمس، وهنا يحطمني يومي كجبل من حديد. آه لو أرتاح من قهقهة الموت من أمامي، ومن على جانبي؟ آه إلى متى سأظل أغفو على شاهدة قبر؟ آه إلى متى سأستمر في الهروب من أحزاني من ظلّ قبر إلى ظلّ قبر. وضاح ولدي البكر، وأنت يا وائل.

آه إلى متى سأبقى أنسج أهداب عينيّ شراعاً أمخر فيه عباب بحر الموت من قبر إلى قبر وراء الحزن والرؤيا؟

عمي الحبيب وائل لم يعد لي غير تربتك الطاهرة موئلاً من خلفها خرابٌ وضياع. بيتي، وشارعي، ومدينتي، أصبحت غريبة عني، فدعني ملقى على شاهدة قبرك، أتلوّى. أغزل الرؤيا، وأعجب كيف لا تغرق هذه القبور بدموعي! وأنا..؟ حتى أنا كيف لا تغرقني دموعي.